مُلخص
السيرة النبوية

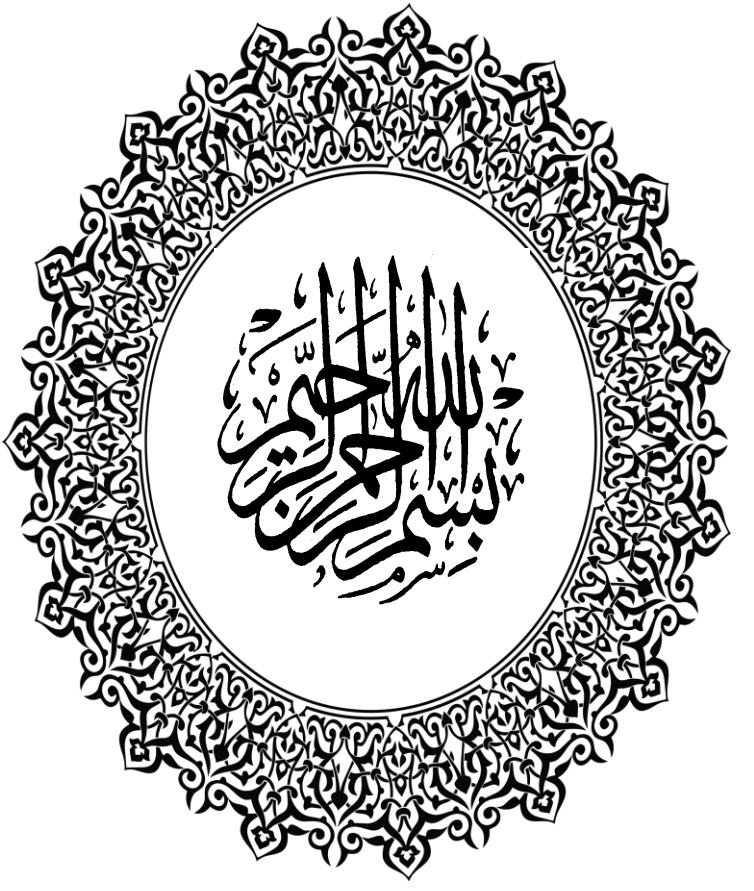
بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

ملخص
السيرة النبوية

تأليف
الشيخ/ محمد هارون
(ت ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م)
من كبار علماء الأزهر

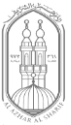

الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء

تليفون: ٠٢٢٥٩٣٩٠٤٦

فاكس: ٠٢٢٥٩٣٩٤٦

البريد الإلكترونى:

SeniorsCouncil@alazhar.eg

الموقع الإلكترونى: www.azhar.eg

العنوان:

ش الأزهر – أمام مسجد

سيدنا الإمام الحسين – القاهرة

*****

فهرست الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية:

ملخص السيرة النبوية

الشيخ / محمد هارون

ص: ١٤ × ٢٠ سم

عدد الصفحات: ١٧٦

الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠ م

متعهد الطبع:

مجمع مطابع الأزهر الشريف

تليفون: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

فاكس:٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

****

تصميم الغلاف:

أ/ إسماعيل عبده محمد علي

إعداد: د. أيمن عبد الحليم محمد الحجار

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٧٩١٨

افتتاحية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسولِ اللهِ، وآلِه وصحبِه ومَن والاه... وبعد:

فإن مركزَ اتزانِ الكرةِ الأرضيةِ ـ جغرافيًّا وفكريًّا ومجتمعيًّا ـ هو العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ؛ الذي يستندُ إلى (**مصر الأزهر**) وبها قِوامُه؛ يأخذُ منها ويتلقى عنها؛ جيلاً وَراءَ جيلٍ.

وبريادة فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ وتوجيهاته؛ **يقوم الأزهر الشريف** بأداء واجبه من خلال منهاجه الوسطي الأصيلِ، وعالميةِ رسالتِه وعِلميتها؛ فيعمل على:

- إنارةِ العقولِ وَهِدَايَتِهَا، والعملِ على رقيِّها ويقظتِها.

- وقايةِ المجتمعاتِ من انحرافِ الأفكارِ وتشددها، وباطلِ الآراءِ وساقِطِها، ومرذولِ العادات ودخيلِها.
- وقد وسعت وسطيته وعالمية رسالته: تنوعَ الفُهومِ، واختلافَ العاداتِ، وتعدُّدَ الثقافاتِ؛ وصار ما تُصْدِرُهُ أرضُ الكنانةِ محطَّ الأنظارِ، ومبعثَ القدوةِ والاحتذاءِ، وبخاصة فيما يمسُّ الشرعَ الشريفَ.

وتأتي هيئةُ كبارِ العلماءِ وهي قمةُ الجهازِ العلمي في الأزهر الشريف؛ لتقوم بدورها في هذا السبيل، مِن:

- تجليةِ صحيح الدين، وبيان وسطيته واعتداله: عقيدة وشريعة وأخلاقًا.
- تصحيحِ المفاهيم، وردّ الشبهات، وكشفِ عوارِ الأفكارِ المنحرفةِ والمتطرفةِ.

- معالجةِ قضايا العصر ومشكلاته.
- تلبيةِ حاجات المجتمع، وإجابة تساؤلاته.
- ترسيخِ قيم التعايش والمواطنة، ودعم رفعة الأوطان ورُقيِّها.

ويتجلى طرف من ذلك في هذه الإصدارات للسادة العلماء الأجلاء؛ أعضاءِ الهيئة-ومَن في درجتهم-قدامى ومعاصرين.

وهذا الملخص الذي بين أيدينا لسيرة أطهر الخلق ورسول الحق، كتبه فضيلة الشيخ محمد هارون، أحد أفراد عائلة توارثت العلم والفضل خالفًا عن سالف، قدَّم فيه بإيجاز ووضوح، ما يعين على تنوير القلوب، واستقامة العقول،وتزكية السلوك، والزلفى إلى الله تعالى وإلى رسوله الكريم ﷺ.

وبالله تعالى التوفيق

أ.د/ صلاح محمود العادلي

أمين عام الهيئة

بطاقة حياة

«الشيخ محمد هارون»

هو العلامة الشيخ محمد بن هارون بن عبد الرازق البِنْجاوي المالكي.

مولده ونشأته:

ولد في قرية «بنجا» بمركز جرجا التابعة محافظة سوهاج، في العشرين من شهر شعبان سنة ١٢٨٣هـ، الموافق ليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٦٦م، وقد نشأ وتربى في بيت تقوى ودين على يد والده العلامة الشيخ (هارون عبدالرازق)، وتدرج في التعليم الأزهري حتى تأهل للتدريس في المعاهد الأزهرية سنة ١٨٩٢م، ثم نُقل إلى وظيفة مفتش في المحاكم الشرعية بنظارة الحقَّانية «العدل»، وتولى منصب قاضي

قضاة السودان خلفًا للعلامة محمد شاكر، وتلاه بعد ذلك الشيخ المراغي.

ثم رجع إلى مصر فصار وكيلًا لمشيخة علماء الإسكندرية أيام مشيخة الشيخ (أبي الفضل الجيزاوي) لها، ثم نقل وكيلًا لشيخ الجامع الأحمدي بطنطا إلى معاشه[١]

و لم يتوقف النبوغ العلمي في هذه العائلة المباركة عند هذا الحدّ حيث أنجب علمًا من أعلام التراث والفكر هو الأستاذ الكبير والمدقق النحرير عبدالسلام هارون، والذي يحدثنا عن والده قائلا: « والدي المغفور له الشيخ محمد هارون الذي كان قاضيًا

(١) ينظر «كناشة النوادر» لعبد السلام هارون ص٣٨ نشر مكتبة الخانجي ط الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، وينظر: «جمهرة أعلام الأزهر الشريف»، د أسامة الأزهري ج ٣ ص ٢٥٥ نشر مكتبة الإسكندرية.

لقضاة السودان، ولعل أقرب سلسلة منه في بلدنا مصر كانت في المناصب القضائية التي يوفد فيها القضاة الكبار من مصر إلى القطر الشقيق السودان، وأول من ظفر بهذا المنصب الخطير في السودان، وهو العلامة المغفور له الشيخ محمد شاكر وكان في سنة ١٨٩٩م، وتلاه والدي المغفور له الشيخ محمد هارون، ثم الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي، ثم الشيخ محمد أمين قراعة، ثم الشيخ نُعمان الجارم، ثم الشيخ حسن مأمون الذي كان آخر قاضٍ للقضاة من مصر في السودان إثر محاولة فصل السودان عن مصر في سنة ١٩٤٢ م »[١]

---

(١) «قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث»، لعبد السلام هارون ص ٩٩ طبعة مكتبة السنة الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م و«كناشة النوادر»، عبد السلام هارون ص ٣٨.

مؤلفاته:

١ - «رسالة في مبادئ العلوم» مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف.

٢ - «تلخيص الدروس الأولية في السيرة المحمدية».طبع قديمًا.

٣ - «دروس في آداب اللغة العربية».

٤ - «تتمة آداب أدب البحث والمناظرة»، وقد طبع.

٥ - شرح على رسالة والدِه «عنوان الظرف».

يقول ابنه المحقق الكبير الأستاذ عبدالسلام هارون متحدثًا عن مؤلفات والده:«والدي المغفور له الشيخ محمد هارون: أقرأ من مؤلفاته «تلخيص الدروس الأولية في السيرة المحمدية» في جزئين، كانا مقررًا علينا في السنتين الأولى، والثانية في جميع المعاهد العلمية الدينية، وكنت أحفظهما عن

ظهر قلب، وله أيضا كتاب «دروس في آداب اللغة العربية» ومما استرعى نظري بعد ما شدوت أني وجدت له تحقيقًا سابقًا لأوان التحقيق، وهو تحقيق كتاب «تيسير الوصول إلى جامع الأصول» لابن الديبع الشيباني "[١]

كما عني بتصحيح ومراجعة كتاب «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي» مع محاضرة عن «التصحيف والتحريف»، قال العلامة محمود الطناحي – رحمه الله –: «ومن الطريف أن هذه الطبعة قد عني بتصحيحها ومراجعة أصولها الخطية الشيخ محمد هارون وكيل مشيخة علماء الإسكندرية»[٢].

---

(١) «قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث»، لعبد السلام هارون ص ٩٩.

(٢) «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيح والتحريف» محمود محمد الطناحي ص٤٦ ، طبعته مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

وفاته:

توفي الشيخ محمد هارون رحمه الله تعالى بتاريخ ٨ من ذي الحجة١٣٤٠هـ/ ٢من أغسطس سنة ١٩٢٢م.(١)

(١) ينظر: «قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي» حول تحقيق التراث عبد السلام هارون ص ٩٩، وراجع: «جمهرة أعلام الأزهر»: د/ أسامه الأزهري ج٣ / ٢٥٦.

نسب النبي ﷺ من جهة أبيه وأمه

هو سيدنا ونبينا محمدٌ خاتمُ الأنبياء والمرسلين ابن عبد الله بن عبد المُطَّلِب بن هاشم بن عبد مَناف بن قُصيّ بن حَكيم بن مُرّة بن كعبِ بن لُؤي بن غالبِ بن فِهر بن مالك بن النَّضر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إِلياس بن مُضر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عَدْنان[1].

هذا هو النسب المتفق على صحته. كما اتفقوا على أن النسب المحمدي الشريف يتصل بسيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم -عليهما الصلاة والسلام- ولكن سلسلة النسب بين

(*)رمزنا لتعليقات المصنف الشيخ محمد هارون بالرمز (ص)، وما كان من عمل القائم على إعداد الكتاب فلم نرمز له بشيء.

[1] ينظر: «السيرة النبوية»، لابن هشام (١/ ٨٩)، و«عيون الأثر»، لابن سيد الناس (١/ ٢٦).

عدنان وسيدنا إسماعيل - عليه السلام - لم يثبت علمها من طريق صحيح[١].

وأمه ﷺ: هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم، الذي هو الجدّ الخامس للنبي ﷺ من جهة أبيه. فأبوه وأمه ﷺ من أصلٍ واحد، يجتمعان في حَكيم بن مُرّة.

ومن جدودهما: فِهْر الذي هو قريش، الذي تنسب إليه الأمم القرشية المشهود لها بالشرف ورفعة الشأن بين العرب.

وكل اجتماع بين آبائه وزوجاتهم كان شرعيًّا، بحسب الأصول العربية، فلم يكن في نسبه الشريف شيء من سفاح

---

[١] يراجع في هذا ما دبجته يراع العلامة محمد بن يوسف الصالحي الشامي في «سبل الهدى والرشاد» (١/ ٢٣٩)، و«عيون الأثر»، لابن سيد الناس (١/ ٢٢).

الجاهلية، فهو نسب شريف طاهر من آباء طاهرين، وأمهات طاهرات والحمد لله رب العالمين[١].

[١] خصَّص السيوطى بابًا فى «الخصائص الكبرى» (١/٦٣)، سماه باب اختصاصه ﷺ بطهارة نسبه، وأنه لم يخرج من سفاحٍ من لدن آدم، وكذا ذكر الإمام الزرقانى في «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (١/ ٥٨) كلامًا نفيسًا.

مولده ﷺ وزمن ولادته ومكانها ووفاة والده

تزوج عبد الله -والد النبي ﷺ- آمنة بنت وهب، وعمره ثماني عشرة سنة، وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسبًا وأكرمهم خلقًا، ولما دخل بها حملت برسول الله ﷺ، وسافر والده عبد الله عقب ذلك بتجارة له إلى الشام، فأدركته الوفاة بالمدينة «يثرب» وهو راجع من الشام، ودفن بها عند أخواله بني عدي بن النجار، وكان ذلك بعد شهرين من حمل أمه آمنة به ﷺ.

ولما تمت مدة الحمل، ولدته ﷺ بمكة المشرفة في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل، الذي يوافق سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - وهو العام الذي أغار فيه ملك الحبشة على مكة، بجيش تتقدمه الفيلة.

وكانت ولادته ﷺ في دار عمه أبى طالب، في شِعْب بني هاشم، وسماه جده عبد المطلب «محمدًا»، فوافق ذلك ما جاء في التوراة من البشارة بالنبي الذي يأتي من بعد عيسى - عليه الصلاة والسلام- مسمى بهذا الاسم الشريف.

كما جاءت البشارة به ﷺ على لسان عيسى - عليه الصلاة والسلام - باسمه «أحمد».

وكانت قابلته ﷺ: الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف، وحاضنته: أم أيمن بركة الحبشية، أَمَة أبيه عبد الله[1].

---

[1] ينظر: «جامع الآثار في السير ومولد المختار»، لابن ناصر الدين (٢/ ٤٧٥).

رضاعه ﷺ وما حصل في زمن الرضاع

أرضعته ﷺ أمه عقب الولادة، ثم أرضعته ثويبة، أَمَة عمه أبي لهب أيامًا، ثم جاء إلى مكة نسوة من البادية يطلبن أطفالًا يرضعنهم ابتغاء المعروف من آباء الرضعاء، على حسب عادة أشراف العرب، فإنهم كانوا يدفعون بأولادهم إلى نساء البادية يرضعنهم هناك، حتى يتربوا على النجابة والشهامة وقوة العزيمة. فاختيرت لإرضاعه ﷺ من بين هؤلاء النسوة «حليمة» بنت أبي ذؤيب السعدية، فأخذته معها بعد أن استشارت زوجها «أبا كبشة» الذي رجا أن يجعل الله لهم فيه بركة، فحقق الله تعالى رجاه، وبدَّل عسرهم يسرًا، فدرَّ ثديُها بعد أن كان لبنها لا يكفي ولدها، ودرت ناقتهم حتى أشبعتهم جميعًا، بعد أن كانت لا تغنيهم، وبعد أن وصلوا به إلى

أرضهم، كانت غنمهم تأتيهم شِباعًا غزيرة اللبن، مع أن أرضهم كانت مُجدبة في تلك السنة، واستمروا في خير وبركة مدة وجوده ﷺ بينهم.

ولما كمل له سنتان، فصلته حليمة من الرضاع، ثم أتت به إلى جده وأمه وكلمتهما في رجوعها به وإبقائه عندها فأذنا لها بذلك[1].

---

[1] ينظر: «عيون الأثر» (١/ ٤٠)، و«المواهب اللدنية» (١/ ٨٩).

حادثة شق صدره ﷺ ورجوعه لأمه

بعد عودة حليمة السعدية به ﷺ من مكة إلى ديار بني سعد بأشهر، بعث الله تعالى ملكين لشق صدره الشريف وتطهيره، فوجداه ﷺ مع أخيه من الرضاع خلف البيوت، فأضجعاه وشقا صدره الشريف، وطهراه من حظ الشيطان، ثم أطبقاه، فذهب ذلك الأخ إلى أمه حليمة وأبلغها الخبر، فخرجت إليه هي وزوجها، فوجداه ﷺ ممتقع اللون من آثار الروع، فالتزمته حليمة والتزمه زوجها، حتى ذهب عنه الروع، فقص عليهما القصة كما أخبرهما أخوه.

وقد أحدثت هذه الحادثة عند حليمة وزوجها خوفًا عليه، ومما زادها خوفًا أن جماعة من نصارى الحبشة، كانوا رأوه معها فطلبوه منها، ليذهبوا به إلى ملكهم فخشيت عليه من بقائه عندها، فعادت به ﷺ إلى أمه، وأخبرتها الخبر،

وتركته عندها، مع ما كانت عليه من الحرص على بقائه معها[١].

(١) ينظر: «سبل الهدى والرشاد» (١/٦ وما بعدها).

وفاة أمه ﷺ وكفالة جده وعمه له

بعد أن عادت حليمة السعدية به ﷺ إلى أمه، وكان إذ ذاك في السنة الرابعة من عمره الشريف، بقي مع أمه وجده عبد المطلب بن هاشم بمكة، في حفظ الله تعالى ينبته الله نباتًا حسنًا، ثم سافرت به أمه ﷺ إلى المدينة المنورة، لزيارة أخواله هناك من بني عدي بن النجار، فتوفيت وهي راجعة به من المدينة إلى مكة بجهة «الأبواء» بالقرب من المدينة[1]، ودُفنت هناك، فقدمت به إلى مكة حاضنته أم أيمن، وقد بلغ من العمر يومئذ ست سنين، ولما وصلت به إلى مكة كفله جده عبد المطلب بن هاشم، وحن إليه حنانًا زائدًا، وعطف

(١) الأبواء: وادٍ من أودية الحجاز، به آبار كثيرة، والمزروع منه يسمى «الخريبة»، ويبعد عن بلدة مستورة شرقًا بنحو ٢٨ كيلومترًا، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ١٧.

عليه عطفًا بليغًا، حتى توفي جده عبد المطلب وعمر رسول الله ﷺ ثماني سنين[١].

وكان جده عبد المطلب يوصي به عمه أبا طالب - الذي هو الأخ الشقيق لأبيه - فلما مات عبد المطلب، كان ﷺ في كفالة عمه أبي طالب يشبّ على محاسن الأخلاق، متباعدًا من صغائر الأمور التي يشتغل بها الصبيان عادة.

---

(١) ينظر: «سبل الهدى والرشاد» (١/ ٧)، و«السيرة الحلبية»، لبرهان الدين الحلبي (١/ ١٦٨).

سفره ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام

لما أراد أبو طالب أن يسافر إلى الشام في تجارة له، رغب رسول الله ﷺ أن يرافقه، فأخذه معه، وسنه إذ ذاك اثنتا عشرة سنة، ولما وصلوا «بُصْرى»[1]، وهي أول بلاد الشام من جهة بلاد العرب، قابلهم بها راهب من رهبان النصارى اسمه «بَحيرا» كان يقيم في صومعة له هناك، فسألهم عن ظهور نبي من العرب في هذا الزمن، ثم لما أمعن النظر في النبي ﷺ وحادثه، عرف أنه النبي العربي، الذي بشر به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وقال لعمه: إنه سيكون لهذا الغلام شأن عظيم، فارجع به واحذر عليه من

(١) بُصْرَى: كبرى مدن حُوران بالجمهورية العربية السورية، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ٤٩.

اليهود، فلم يمكث أبو طالب في رحلته هذه طويلًا، بل عاد به إلى مكة حين فرغ من تجارته، وبقي ﷺ في مكة مثال الكمال، محفوظًا من معايب أخلاق الجاهلية، شهمًا شجاعًا، حتى إنه حضر مع عمه حرب «الفِجار»(١)، وحلف الفضول(٢)، وسنه إذ ذاك عشرون سنة(٣).

---

(١) هي حرب كانت بين قبيلة كنانة ومعها حليفتها قريش، وبين قيس، وقد ابتدأت هذه الحرب فيما بين مكة والطائف، ووصلت إلى الكعبة، فاستُحلّت حُرماتُ هذا البيت الذي كان مُقدسًا عند العرب، ولذلك سُميت حرب الفِجَار. (ص)

(٢) حِلف الفُضول: كان عَقِب هذه الحرب، وهو تعاقد بطون قريش على أن ينصروا كل من يجدونه مظلومًا بمكة سواء أكان من أهلها أم من غير أهلها. (ص)

(٣) للاستزادة يراجع: «جامع الآثار» (٣/ ٣٩٣)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٤٠).

رحلته إلى الشام مرة ثانية في تجارة لخديجة بنت خويلد

كان طريق الكسب في قريش التجارة، وكانت خديجة بنت خويلد – من بني أسد بن عبد العزى بن قصي – سيدة ذات مال؛ تتاجر في مالها بطريق المضاربة مع من تثق به من الرجال، فلما سمعت بأمانة رسول الله ﷺ وصدقه – حتى إنه اشتهر بين قومه باسم «الأمين» – بعثت إليه وعرضت عليه أن يسافر بمال لها إلى الشام، وتعطيه من الربح أكثر مما كانت تعطي غيره، فقبل ذلك رسول الله ﷺ، وسافر بمالها مع غلامها ميسرة، فباع واشترى وعاد بربح عظيم.

وقد شاهد ميسرة في هذه الرحلة كثيرًا من بركات النبي ﷺ وإكرام الله تعالى له؛ فإنه ﷺ لما قدم الشام، نزل في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب هناك، فقال هذا الراهب

لميسرة: إنه ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، وكان ميسرة يشاهد رسول الله ﷺ مظللًا من حر الشمس وهو يسير على بعيره دون أن تكون معه مظلة[1].

---

[1] ينظر: «السيرة النبوية»، لابن هشام (٢/ ٥)، و«الروض الأُنف»، لأبي القاسم السُّهَيلي (٢/ ١٥١).

زواجه ﷺ بالسيدة خديجة بنت خويلد

لما قدم ميسرة إلى سيدته خديجة، وأخبرها بما شاهد من بركات النبي ﷺ وإكرام الله تعالى له، بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك، وصدق حديثك، وكانت خديجة مرغوبًا فيها لشرف نسبها ورفعة قدرها بين قومها، فعرض النبي ﷺ الأمر إلى أعمامه، فوافقوه على زواجه ﷺ بها وتوجهوا معه إليها وأتموا عقد الزواج بينهما، وتولاه عنها عمها عمرو بن أسد، كما تولاه عن النبي ﷺ عمه أبو طالب وكان صداقها عشرين بَكْرة، وكان سن السيدة خديجة أربعين سنة، وسنه ﷺ خمسًا وعشرين سنة، ولم يتزوج عليها النبي ﷺ حتى توفيت - رضي الله عنها - وذلك قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين، وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا

إبراهيم، وأولهم القاسم - وبه كان يكنى رسول الله ﷺ - وتليه زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم عبد الله الملقب بالطيب وبالطاهر، وكانت - رضي الله عنها - متزوجة قبله ﷺ برجل اسمه أبو هالة، ولدت منه ولدًا اسمه هند، فكان ربيب رسول الله ﷺ.

بقية أزواجه ﷺ وأعمامه وعماته

بعد وفاة السيدة خديجة بأيام، تزوج ﷺ بالسيدة سودة بنت زمعة العامرية القرشية[١]، ثم تزوج بالسيدة عائشة[٢] بنت سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - وهي بكر صغيرة بين السادسة والسابعة من عمرها، وبنى بها وهي بنت تسع سنين[٣]، وكانت أحب نسائه إليه، ثم تزوج

---

[١] كانت من السابقين إلى الإيمان، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية، وعقب رجوعه منها توفي عنها، فتزوجها النبي ﷺ، وهي التي وهبت يومها لعائشة. (ص)

[٢] كانت أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق، وكان أكابر الصحابة يرجعون إلى قولها ويستفتونها، وما نزل الوحي على النبي ﷺ في فراش امرأة غيرها. (ص)

(٣) زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة عائشة تم في إطار أعراف وقوانين المجتمع في ذلك الوقت، وهذا هو المطلوب، كما أن اختلاف الزمان والمكان يؤثر بقدر كبير في تكوين البنية الجسمانية والعقلية، فضلا عن تغير نمط الحياة

بالسيدة حفصة بنت سيدنا عمر بن الخطاب، ثم تزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية، وتوفيت بعد بنائه بها بشهرين، ثم تزوج بالسيدة أم سلمة هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية، ثم تزوج بالسيدة زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة، ثم تزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث من بني المصطلق[1]، ثم تزوج بالسيدة صفية

ثقافيا واجتماعيا.

[1] كانت من سبايا بني المصطلق، فتزوجها ﷺ بعد أن أعتقها ليقتدي به المسلمون، فأعتقوا من كان بأيديهم من نساء بني المصطلق إكرامًا لمصاهرة رسول الله ﷺ لهم، فأسلم بنو المصطلق جميعًا، فكانت جويريةُ هي أَيْمنَ امرأةٍ على قومها. (ص)

بنت حُيَيّ بن أخطب سيد بني النضير، ثم تزوج السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج بهن.

وقد توفي ﷺ عن تسع من نسائه وهن: عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وصفية، وأم حبيبة، وميمونة، وسودة، وجويرية.

وأول من توفي بعده منهن: زينب بنت جحش، وآخرهن أم سلمة، وقد تَسَرَّى ﷺ بأربع إماء منهن مارية القبطية، وهي أم ولده إبراهيم الذي توفي قبل الفِطام في السنة العاشرة من الهجرة.

وكان أعمامه ﷺ أحد عشر، لم يسلم منهم سوى سيدنا حمزة، وسيدنا العباس، وهو أصغرهم، ولم يكن منهم شقيق لوالد رسول الله ﷺ سوى أبي طالب، والزبير.

وعماته ست، لم يسلم منهن سوى السيدة صفية والدة سيدنا الزبير بن العوام.

وكان له ﷺ مَوالٍ[1] كثيرون، ذكور وإناث، أعتق أكثرهم، منهم زيد بن حارثة، أعتقه وزوَّجه مولاته أم أيمن فولدت سيدنا أسامة بن زيد - رضي الله عنه.

وقد تشرف بخدمته ﷺ كثيرون، منهم أنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وبلال بن رباح، وأبو ذر الغفاري.

وكان من كُتَّابه ﷺ: أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان وعلي، ومعاوية، والزبير، وعمرو بن العاص، وكثير غيرهم،

---

[1] مَوالٍ: جمع مولى، وهو العبد.

كانوا يكتبون الوحي والعهود، وكتبه ﷺ إلى الملوك والأمراء[1].

---

[1] للتوسع في استقصاء كُتَّابه ﷺ، يراجع: «المواهب اللدنية» (١/ ٥٣١)، و«كُتَّاب النبي ﷺ»، للدكتور محمد مصطفى، و«الوثائق السياسية في العهد النبوي»، لمحمد حميد الله.

شهوده ﷺ بناء الكعبة

الكعبة هي أول بيت وضع في الأرض للعبادة، وقد بناها سيدنا إبراهيم الخليل مع ولده سيدنا إسماعيل - عليهما السلام - ثم جُدد بناؤها من بعده ثلاث مرات، وكان بناؤها من الصخر وارتفاعها فوق القامة.

وعندما بلغت سن النبي ﷺ خمسًا وثلاثين سنة، اتفق أن نزل سيل عظيم بمكة أثَّر في جدران الكعبة فأوهنها على ما كانت عليه من الضعف بسبب حريق أصابها من قبل، فاجتمعت قبائل قريش وشرعوا في هدمها وبنائها بناء مرتفعًا، وكان الأشراف منهم يتسابقون في نقل الحجارة وحملها على أعناقهم. فكان رسول الله ﷺ فيمن يحمل الحجارة وينقلها إلى مكان البناء، مع عمه العباس - رضي الله عنه.

ولما تم بناء الكعبة[١]، وأرادت قريش وضع الحجر الأسود في موضعه اختلف أشرافهم فيمن يضعه. وظلوا مختلفين أربعة أيام. فأشار عليهم أبو أمية الوليد بن المغيرة، وهو أكبرهم سنًّا بأن يحكِّموا بينهم من يرضون بحكمه. فاتفقوا على أن يكون الحكم لأول قادم من باب الصَّفا[٢]، فكان أول داخل هو رسول الله ﷺ، فارتاحوا جميعًا لما

---

[١] بارتفاع ثماني عشرة ذراعًا، بحيث يزيد عن أصله تسع أذرع، وقد رفع الباب بحيث لا يصعد إليه إلا بدرج. (ص)

[٢] أي من الجهة التي كان موضعها - بعد بناء المسجد - باب الصفا، من أبواب المسجد الحرام. فإن المسجد لم يكن قد بُني وقتئذ، وكانت البيوت محيطة برحاب الكعبة، إلى أن بناه سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعد أن أزال البيوت لتوسعة مكانه، ثم جُدِّد بعد ذلك ووُسِّع فيه حتى صار إلى ما هو عليه الآن. (ص)

يعهدونه من أمانته، وحكمته، وصدقه، وإخلاصه للحق، وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد. فلما وصل إليهم وأخبروه الخبر، بسط رداءه وتناول الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بطرف من الرداء، ثم ارفعوه جميعًا. ففعلوا حتى وصلوا به إلى موضعه، فوضعه فيه بيده ﷺ، وبذلك انتهت هذه المشكلة التي كادت تؤدي إلى الحرب والقتال فيما بينهم.

معيشته ﷺ قبل البعثة

ولد ﷺ يتيمًا، ولم يترك له والده مالًا، فبعد أن رجع إلى مكة من منازل (بني سعد) التي كانت موضع رضاعته، كان في كفالة جده عبد المطلب. ثم في كفالة عمه أبي طالب. ولما بلغ سنًّا تُمكِّنه أن يعمل عملًا، كان في بعض الأحيان يرعى الغنم لأهلها. بأجر ينفق منه على نفسه. ثم كان يعمل في التجارة، وكان أكثر ذلك في مال السيدة خديجة – رضي الله عنها.

فكانت معيشته ﷺ – منذ قدر على الكسب – من عمل يده مكتفيًا بالكفاف، ومقتصرًا من الدنيا على قدر الحاجة. وهكذا حال الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – لم يشغلهم الله تعالى بأمر الدنيا إلا على قدر الحاجة. ليتفرغوا لما أراده الله تعالى منهم من إرشاد الخلق إلى طرق السعادة

في دار البقاء والخلود. وقد نشأ ﷺ من مهد طفولته كاملًا، حفظه الله تعالى في صغره من معايب الأخلاق[1] إلى أن بلغ مبلغ الرجال. فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة حتى كان يسمى فيما بين قومه «الأمين»، وشهد له بذلك العدو والصديق.

وقد حفظه الله تعالى منذ نشأته من قبيح أحوال الجاهلية، وبغَّض إليه أوثانهم حتى إنه من صغره ما كان يحلف بها، ولا

---

[1] ورد عنه ﷺ في حديث له عما كان الله تعالى يحفظه به في صغره من معايب الأخلاق، أنه كان في غلمان من قريش ينقلون الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، فكان كل واحد منهم يجعل إزاره على رقبته ليحمل عليه الحجارة فيتَعرَّى، فجاء مَن أرشده إلى شد إزاره، فكان يحمل الحجارة على رقبته دون حائل، وإزاره يستره من بين أصحابه ﷺ. (ص)

يحترمها، ولا يحضر لها عيدًا أو احتفالًا، وكان لا يأكل ما ذُبِحَ على النُّصُب[1]، ولا يشرب الخمر مع شيوعه في قومه.

وحفظه الله تعالى من النقائص والأدناس قبل النبوة، كما عصمه بعد النبوة.

---

[1] النُّصُب بضمتين: حجارة كانوا ينصبونها ويصبّون عليها دم الذبائح ويعبدونها.

(ص)

شيء مما أكرمه الله تعالى به قبل البعثة

وقد أكرم الله آل حليمة السعدية التي أرضعته ﷺ فبدل عسرهم يسرًا، وأشبع غُنيماتِهم، وأَدَرَّ ضروعها[١] في سنة الجدب والشدة. كما بارك سبحانه وتعالى في رزق عمه أبي طالب حينما كان في كفالته مع ضيق ذات يده، كما كان - سبحانه وتعالى - يسخر له الغمامة تظله - وحده - من حر الشمس في سفره إلى الشام فتسير معه أنَّى سار، دون غيره من أفراد القافلة[٢].

---

[١] أى: نزلت البركة في ضرعها، فكانت تُدرُّ اللبن الكثير.

[٢] ينظر: «المواهب اللدنية» (٢/ ٢٥٢).

وكان - سبحانه وتعالى - يلهمه الحق، ويرشده إلى المكارم والفضائل في أموره كلها، حتى إنه كان إذا خرج لقضاء حاجة في سفره، بعد عن الناس حتى لا يُرى.

وقد كان علماء اليهود والنصارى - رهبانهم وكهنتهم - يعرفون زمن مجيئه ﷺ، مما جاء من أوصافه في التوراة، وما أخبر به المسيح عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - فكانوا يسألون عن مولده وظهوره، وقد عرفه كثيرون منهم، لما رأوا ذاته الشريفة، أو سمعوا بأوصافه وأحواله ﷺ.

تَعَبُّدُه ﷺ قبل البعثة

كان ﷺ قبل نبوته يتتبع ما يثبت عنده وما يرشده الله تعالى إليه، من شرائع الأنبياء السابقين - عليهم الصلاة والسلام - ولا سيما شريعة أبيه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فيتعبد بذلك، ولم تثبت بالأحاديث الصحيحة كيفية تعبده ﷺ، والذي ثبت أنه ﷺ كان يختلي في (غار حراء)[١] من كل سنة شهرًا، وكان يوافق ذلك شهر رمضان يعبد الله تعالى بالفكر، ويطعم المساكين مما كان يتزود به في مدة خَلْوته.

---

[١] غار حِراء: يقع بجبل حراء الذى يسمى بجبل النور، ويقع فى الشمال الشرقي من مكة المكرمة، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ٩٨.

وكان إذا انتهى من خَلْوته، ينصرف إلى الكعبة، فيطوف بها سبعًا، أو ما شاء الله من ذلك، قبل أن يرجع إلى بيته.

وكان يحب العزلة والخَلْوة من زمن طفولته، إلى أن بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

كيفية الوحي وطرقه ومبدؤه وتاريخ النبوة والبعثة المحمدية

الوحي: هو ما يلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى، وله طرق ومراتب منها: الرؤيا الصادقة؛ فرؤيا الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – من قبيل الوحي، ومنها: أن يلقي المَلَك في رُوع النبي وقلبه، ما يوحي به الله إليه، من غير أن يرى له صورة.

ومنها: أن يأتي المَلَك إلى النبي، متمثلًا بصورة رجل، فيخاطب النبي حتى يأخذ عنه ما يقول له ويوحي به إليه. وفي هذه الحالة لا مانع من أن يراه الناس أيضًا.

ومنها: أن يأتي المَلَك في صورته الأصلية التي خلقه الله تعالى عليها ويراه النبي كذلك. فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه.

وأحيانًا يأتي المَلَك مخاطبًا النبي بصوت وكلام مثل صلصلة الجَرَس[1]، وهذه الحالة أشد أحوال الوحي على النبي، فقد كان نبينا ﷺ عندما يأتيه الوحي بهذه الكيفية، يعرق حتى يسيل العرق من جبينه في اليوم الشديد البرد، وإذا أتاه وهو راكب، بركت به ناقته.

وقد يكون الوحي بكلام الله تعالى للنبي، دون واسطة المَلَك، بل من وراء حجاب، كما حصل لنبينا ﷺ.

وأول ما بدئ به سيدنا محمد ﷺ من الوحي، الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا حصلت في اليقظة كما رآها، وذلك عندما كملت سنه أربعين سنة، وهي سن الكمال،

---

[1] أي: صوته. (ص)

وذلك في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل الذي كان فيه مولده ﷺ.

فلما أراد الله - عز وجل - إرساله إلى الخلق، أرسل إليه سيد ملائكته الأمين «جبريل» - عليه السلام - فجاءه متمثلًا بصورة رجل، وهو في خلوته بغار حراء، وكان ذلك في شهر رمضان من تلك السنة، ففاجأه بقوله: اقرأ! فقال: ما أنا بقارئ! لأنه ﷺ كان أُميًّا - لم يتعلم القراءة - فغَطَّه جبريل - عليه السلام - في فراشه غطًّا شديدًا[1]، ثم أرسله فقال: اقرأ! فقال: ما أنا بقارئ! ثم غَطَّه وأرسله فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥]

---

[1] أي: ضَمَّه وعَصَرَه بشدة. (ص)

فقرأها النبي ﷺ وانصرف عنه جبريل، فانصرف النبي ﷺ إلى أهله يرجُف فؤاده مما أدركه من الرَّوْع، وقال: «زَمِّلوني»[١]، فلما ذهب عنه الرَّوْع أخبر زوجته خديجة - رضي الله عنها - بما كان، فقالت له: «أَبشِر يا بن عم واثبُت، فإني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة»، ثم ذهبت معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل - وكان شيخًا كبيرًا يعرف الإنجيل وأخبار الرسل - فأخبره النبي ﷺ بما رآه، فقال له ورقة: هذا الناموس[٢] الذي أُنزل على موسى.

---

[١] أي: اطرحوا عليَّ الغطاء ولفوني به. (ص)

[٢] الناموس: أي صاحب الوحي، والمقصود به جبريل عليه السلام، وذكر بعض العلماء أن معناه صاحب سِر الخير، كما أن الجاسوس صاحب سِر الشر، يراجع: «عيون الأثر» (١/ ١٠٨)، و«تاج العروس»، للزَّبِيدي (١٦/ ٥٨٠).

وبعد ذلك فَتَرَ الوحي وانقطع مدة تقدر بسنتين ونصف السنة[1]، اشتد فيها شوق النبي ﷺ إلى الوحي، وشق عليه تأخره عنه، فبينما هو ﷺ يمشي في أفنية مكة؛ إذ سمع صوتًا

---

[1] اختلف علماء السِّيَر فى مدة فتور الوحي، فمنهم من قال بأنها كانت ثلاث سنوات، وهذا القول تخالفه كثير من الآثار، وذكر البيهقي أن الفترة كانت ستة أشهر، وذكر ابن حجر أنه ورد عن ابن عباس أنها كانت أيامًا، وقال ابن حجر: وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين، وهي ما بين نزول "اقرأ" و"يا أيها المدثر"، عدم مجيء جبريل إليه، بل تَأَخُّر نزول القرآن فقط، ثم نقل عن الشعبي أنه قال: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقُرِنَ بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قُرِنَ بنبوته جبريل، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة، ينظر: «فتح الباري» (١/ ٢٧).

من السماء، فرفع بصره، فإذا المَلَك الذي جاءه بغار حراء وهو جبريل – عليه السلام – فعاد إليه الرعب الذي لحقه في بدء الوحي، وعاد إلى أهله، وقال: «دَثِّروني دَثِّروني»، فأوحى الله تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ – ٧]

فكان ذلك مبدأ الأمر له ﷺ بالدعوة إلى الإسلام، وبعد ذلك تتابع الوحي ولم ينقطع، حتى أكمل الله تعالى دينه، وأتم نعمته.

ومما سبق يظهر أن نبوته ﷺ سابقة على رسالته.

الدعوة إلى الإسلام سرًّا

عندما نزل الوحي علي سيدنا محمد ﷺ لم يؤمر بتبليغ الرسالة للناس، بل كان الأمر في ذلك قاصرًا على إبلاغه رسالة ربه إليه، وتمجيده - جل وعلا - بما جاء في أوائل سورة «اقرأ باسم ربك»، وبعد أن فتر الوحي، دعا بأمر الله تعالى له بأن يقوم بتبليغ رسالة ربه.

ولما كان أهل مكة الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ قومًا جُفاة[1]، متخلقين بأخلاق تغلب عليها العزة والأنفة،

---

[1] أي: غلاظ القلوب.

وفيهم سَدَنَة الكعبة[1]، والقُوَّام على الأوثان والأصنام التي كانت مقدسة عند سائر العرب يعبدونها ويتقربون إليها بالذبائح والهدايا، ولا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ ولا ينقادون إليه بسهولة - كان من حكمة الله تعالى تلقاء ذلك، أن تكون الدعوة إلى دين الإسلام في مبدأ أمرها سرية، لئلا يفاجَؤوا بما يهيجهم وينفرون منه، ويكون سببًا لشن الغارات والحروب وإراقة الدماء.

والداعي - صلوات الله عليه وسلامه - لم يكن له إذ ذاك ناصر ولا معين من خلق الله، ومن سنة الله تعالى في خلقه ربط الأسباب بالمسببات، فلم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ

---

[1] أي: المسؤولون عنها خدمةً وتولِّي أمرها بفتح بابها وإغلاقه، ينظر: «تاج العروس» (٣٥/ ١٨٠).

بالجهر بالدعوة من قبل أن يهيئ له أسباب النصر والفوز على من يقاومه في ذلك، وخصوصًا أن قومه الذين بعث فيما بينهم كانوا أشد الناس تمسكًا بمعبوداتهم، وحرصًا على ما كان عليه آباؤهم.

ومن الناس من هو عظيم في قومه، رفيع الدرجة فيما بينهم، ومنهم من هو دون ذلك، فالعظماء من الناس تمنعهم أنفتهم من إجابة الداعي لهم إلى مفارقة ما عليه جماعتهم، ونبذ ما بينهم من الروابط القومية، والعادات المتأصلة؛ إذ كل فرد منهم يرى أن انفراده بالرضوخ للصغير، ينقصه في نظر قومه، فإذا فوجئ هؤلاء الأعاظم بإعلان الدعوة إلى غير ما كانوا عليه، ظهروا بمظهر المنكر المعاند، وقاوموا الدعوة بجملتهم.

وغير العظماء تبع للعظماء والرؤساء،فإذا دعوا إلى مخالفة ما عليه أولئك العظماء جهارًا لم يجسروا على إجابة الداعي، متى لم يسبقهم إلى ذلك أفراد من العظماء.

فإعلان الدعوة يحتاج إلى مقدمة يستأنس بها الفريقان، وما ذلك إلا باجتذاب أفراد من هؤلاء وهؤلاء خُفية، حتى إذا تكونت منهم جماعة وأعلنت بهم الدعوة، سَهُل على غيرهم أن ينبذوا تقاليد قومهم، ويتبعوا ما يدعوهم إليه الداعي، مما تنشرح له صدورهم، ولا تأباه فطرتهم.

وقد ابتدأ رسول الله ﷺ هذه الدعوة الإفرادية فيمن يعرفهم ويعرفونه، ويطمئن إليهم، ويثق بهم، ويتوسم فيهم الخير وحب الحق من أهله وعشيرته، فبادر إلى التصديق والإيمان به أفراد قليلون، كانوا يخفون إسلامهم عمن عداهم، ويقيمون صلاتهم وما أُمروا به من العبادات خُفية

لا يظهرون بذلك في مجامع قريش، بل ربما كان الواحد منهم يختفي لعبادته عن أهله وولده، وكانوا يجتمعون بالنبي ﷺ وحدانًا وجماعات مع الاختفاء والتحاشي عن الظهور، ولما بلغوا عددًا يربو على الثلاثين، اختار لهم النبي ﷺ دارًا فسيحة من دورهم يجتمعون فيها معه لإرشادهم وتعليمهم أمور دينهم.

وكان أول من بادر إلى الإسلام: خديجة بنت خويلد زوجته ﷺ، وابن عمه علي بن أبي طالب، وعمره إذ ذاك عشر سنين - وكان مقيمًا عند رسول الله ﷺ - وزيد بن حارثة الذي كان مملوكًا للسيدة خديجة، ووهبته للنبي ﷺ فأعتقه وتبناه وزوَّجه مولاته وحاضنته أم أيمن، وقد كانت أيضًا من السابقين إلى الإسلام.

وأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان صديقًا للنبي ﷺ قبل النبوة، يعرف صدقه، فعندما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق وقال: «بأبي أنت وأمي، أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله»، وقال النبي ﷺ في حقه: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة[١]، غير أبي بكر»[٢]. وكان - رضي الله عنه - عظيمًا في قومه، يثقون برأيه، فدعا إلى الإسلام من توسم فيهم الإجابة،

---

[١] الكبوة: أن يقف ساعة حتى ينظر فى أمره، ينظر: «المجالسة وجواهر العلم»، للدِّينوري (٣/ ٤٦٩).

[٢] أخرجه البلاذري فى «أنساب الأشراف» (١٠/ ٥٣) مرسلًا، وأخرجه أيضًا ابن بطَّة فى «الإبانة» (٩/ ٤٥٢)، حديث رقم (٩٩) مرسلًا، من حديث الزهري، واختلاف مخرجهما مما يقوي سندهما، والله أعلم.

فأجابه عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأتى بهم إلى النبي ﷺ فأسلموا، ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد العدوي، وأبو سلمة المخزومي، وخالد بن سعيد بن العاص، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبيد الله، والأرقم بن أبي الأرقم، وكل هؤلاء من بطون قريش. ومن غيرهم: صهيب الرومي، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم.

وقد استمرت هذه الدعوة السرية ثلاث سنين، أسلم فيها جماعة لهم شأن في قريش، وتبعهم غيرهم، حتى فشا ذِكر الإسلام، وتحدث به الناس؛ فجاء وقت الجهر بالدعوة.

الجهر بالدعوة

بعد أن مضى على الإسرار بالدعوة ثلاث سنين، كثر دخول الناس في دين الإسلام من أشراف القوم ومواليهم رجالهم ونسائهم، ففشا ذِكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة وأنزل عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]

فبادر بامتثال أمر ربه، وأعلن لقومه الدعوة إلى دين الله تعالى، وصعد على الصفا ونادى بطون قريش، فلما اجتمعوا قال لهم: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟»، قالوا: نعم! ما جربنا عليك كذبًا. فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، ثم أنزل الله

تعالى على رسوله:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] [الشعراء: ٢١٤]

فجمع من بني عبد مناف نحو الأربعين، وقال لهم: «ما أعلم إنسانًا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به وقد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، واللهِ لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم، واللهِ الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة»[2].

---

[1] أخرجه بنحوه البخاري في صحيحه (٤٧٧٠)، ومسلم في صحيحه (٢٠٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[2] «السيرة الحلبية» (١/ ٤٠٥).

واستمر رسول الله ﷺ في إعلان الدعوة إلى الله وتوحيده، حتى ظهر لقومه أن هذه الدعوة فيها عيب معبوداتهم الباطلة، وتسفيه عقول من يعبدونها؛ فنفروا منه، وأظهروا له العداوة، فذهب جماعة منهم إلى عمه أبي طالب، وطلبوا منه أن يمنعه عن عيب آلهتهم، وتضليل آبائهم، وتسفيه عقولهم، أو يتنازل عن حمايته، فردهم أبو طالب ردًّا جميلًا، واستمر رسول الله ﷺ يصدع بأمر الله تعالى، وينشر دعوته، ويحذر الناس من عبادة الأوثان، ولما لم يطيقوا الصبر على هذا الحال، عادوا إلى أبي طالب وطلبوا منه أن يكفه، أو ينازلوه وإياه في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، فعظم الأمر على أبي طالب، وكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فقال له النبي ﷺ: «واللهِ يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما فعلت،

حتى يظهره الله أو أهلك دونه»، فقال أبو طالب: اذهب فقل ما أحببت، فواللهِ لا أسلمك لشيء أبدًا[١].

ولما رأت قريش تصميم أبي طالب على نصرة رسول الله ﷺ واتفاق بني هاشم وبني المطلب معه في ذلك، وكان وقت الحج قد قرب، وخافوا من دعوته في أنفس العرب الوافدين لزيارة الكعبة؛ اجتمعوا وتداولوا فيما يصنعون في مقاومة ذلك.

فاتفقوا على أن يذيعوا بين الوافدين إلى مكة من العرب، أنه ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته! وصاروا

---

[١] ينظر: «السيرة النبوية»، لابن هشام (٢/ ١٠١) من طريق ابن إسحاق، و«عيون الأثر» (١/ ١١٨).

يجلسون بالطرق، حين جاء موسم الحج، فلا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره، ولكن الله تعالى أراد أن يكون ذلك سببًا في شيوع دعوته ﷺ في بلاد العرب كلها.

ولما رأت قريش أنهم لم يفلحوا في إرجاع أبي طالب عن نصرة رسول الله ﷺ وحمايته، وأنه قد انضم إليه في ذلك غيره وأن دعوة رسول الله في انتشار، وأن المؤمنين به في ازدياد - لجؤوا إلى طريقة الأذى، فأغروا سفهاءهم أن يتظاهروا بالاستهزاء برسول الله وإيذائه، خصوصًا إذا ذهب إلى الصلاة، وكان أبو جهل يحاول منع رسول الله ﷺ من الصلاة عند الكعبة، وقد أراد مرة أن يَرُضَّ[1] رأسه ﷺ وهو ساجد، ولكن الله تعالى حفظه منه؛ فإنه لما

---

[1] يَرُضّ: أي يَدُقّ رأسه، ينظر: «لسان العرب»، لابن منظور (٧/ ١٥٤).

قرب منه خانته قواه، وسقط من يده الحجر الذي أعده لذلك، ورجع إلى قومه مذعورًا ممتقع اللون، وهو يقول: إنه قد تعرض لي فحل ما رأيت مثله قط! هَمَّ بي ليأكلني. وقد تمثل جبريل - عليه السلام - بهذه الصورة، حفظًا لرسول الله ﷺ.

وتمادى ذلك الفاجر هو وأعوانه، ومنهم عقبة بن أبي معيط، في التعرض لرسول الله ﷺ، والله تعالى يحفظه ويرد كيدهم في نحورهم.

وكان أبو لهب ـ وهو عمه ﷺ ـ أشد عليه من الأباعد، وكان من المؤذين: العاص بن وائل السهمي - والد عمرو بن العاص - والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب الأسدي - ابن عم السيدة خديجة زوج النبي ﷺ - والوليد بن المغيرة - عم أبي جهل - والنضر بن الحارث

العبدي، ولم يُسْلِم من هؤلاء أحد، بل أهلكهم الله تعالى على الكفر، ما بين قتيل في غزوة بدر، ومعذب بأشد الأمراض وأشنعها، والله عزيز ذو انتقام.

ولما رأى كفار قريش أن طريق الأذى الذي لجؤوا إليه، لم يُجْدِهم نفعًا فيما يريدون؛ اجتمعوا للشورى فيما يعملون مع رسول الله ﷺ لإرجاعه عن أمره، فاتفقوا على أن يبعثوا إليه عتبة بن ربيعة العبشمي ـ وكان من عظمائهم ـ ليعرض عليه أمورًا، لعله يقبلها عن هذه الدعوة، فذهب إلى رسول الله ﷺ، وهو يصلي في المسجد، وقال له: يا ابن أخي، إنك من خيارنا حسبًا ونسبًا، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، ومَن مضى من آبائهم، فإن كنت تريد بما جئت به من الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالًا،

وإن كنت تريد شرفًا، سَوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد مُلكًا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن[1]، لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فلما فرغ من كلامه، قرأ عليه النبي ﷺ سورة من القرآن، فرجع عتبة إلى قومه وقال لهم: يا معشر قريش، لقد سمعت قولًا ما سمعت مثله، واللهِ ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، فأطيعوني وامتنعوا عن الرجل، فوالله ليكونن لكلامه الذي

(١) يقال رَئِيّ من الجن: أي مس. (ص)

سمعت شأن، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فَعِزُّه عزكم. فقالوا: لقد سحرك محمد[1]!

ولما لم تنفعهم هذه الحيلة، عمدوا إلى حيلة أخرى؛ فعرضوا على رسول الله ﷺ أن يشاركهم في عبادتهم، ويشاركوه في عبادته! فأنزل الله تعالى عليه سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

فلما يئسوا من ذلك؛ طلبوا منه أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان، والوعيد الشديد، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ [يونس: ١٥]

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص ٢٠٧)، ومن طريقه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ١٣١).

ولما رأوا أن كل ذلك لم ينفعهم شيئًا؛ لجؤوا إلى طرق التعجيز، واستمروا يسألون رسول الله ﷺ أسئلة تعنت وعناد، مثل قولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا [١] * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا [٢] * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا [٣] * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا ﴾[الإسراء: ٩٠ – ٩٣]

---

(١) أي عينًا عزيزة لا تنقطع أبدًا.

(٢) أي قطعًا

(٣) أي كفيلاً بما تقول.. شاهدًا بصحته.

وكان يجيبهم عن ذلك بما يأمره الله تعالى به، مثل قوله تعالى:﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٣]

أمره ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة

لما عجزت قريش عن مقاومة رسول الله ﷺ بالطرق السابقة، لجؤوا إلى استعمال الشدة والأذى مع أصحابه، فكل قبيلة كانت تسيء إلى من أسلم منها، وهم يتحملون تلك الإساءات بالصبر الجميل، فلم يفتنوا عن دينهم، بل ثبتوا على يقينهم.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من الأذى، وهم غير قادرين على منعه، لقلة عددهم، وعدم استعدادهم إذ ذاك؛ أشار عليهم أن يهاجروا إلى الحبشة، حتى يجعل الله لهم فرجًا مما هم فيه، فهاجر إليها منهم عشرة رجال، وخمس نسوة، في مقدمتهم سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، ومكثوا هناك ثلاثة أشهر، رجعوا بعدها إلى مكة، ولم يتمكنوا من دخولها إلا في

حماية مَن أجارهم مِن عظماء القوم، وفي ذلك الوقت أسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان عمره حين إسلامه ستًّا أو سبعًا وعشرين سنة، ولما أسلم قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم[1]!

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش؛ عرضوا على بني عبد مناف دية مضاعفة ليسلموا إليهم رسول الله ﷺ، فلم يقبل ذلك بنو عبد مناف، فعرضت قريش على أبي طالب أن يعطوه فتى من فتيانهم ويسلِّم إليهم ابن أخيه، فردهم، وقال لهم: عجبًا لكم! تعطوني ابنكم أَغْذُوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟!

---

[1] ينظر: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (١٠٤/٤)، و«السيرة الحلبية» (٤٧١/١)، وأخرجه الآجري في «الشريعة» (١٨٨١/٤)، حديث رقم (١٣٤٨).

واتفق كفار قريش على مقاطعة بني عبد مناف، وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم، فلا يعاملونهم ببيع ولا شراء حتى يسلموا إليهم محمدًا ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، توكيدًا على أنفسهم بذلك، فالتجأ بنو عبد مناف - مسلمهم وكافرهم - إلى أبي طالب، ودخلوا معه في شِعْبه، فحاصرهم فيه كفار قريش مدة تقرب من ثلاث سنين، حتى نفد ما عندهم من الزاد، واضطروا لأكل أوراق الأشجار[1]!

وبعد دخول رسول الله ﷺ الشِّعْب، أشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها منهم ثلاثة وثمانون رجلًا من بطون قريش، ومعهم من نسائهم سبع عشرة

---

[1] ينظر: «عيون الأثر» (١/١٤٨)، و«السيرة النبوية»، لابن هشام (٢/٢٢١).

امرأة، ومن أخذوا من أولادهم، ولما وصلوا إلى الحبشة أكرمهم ملكها ـ وكان عادلًا ـ وأمَّنهم على عبادتهم، ومكَّنهم من إعلانها. فلما علمت قريش بذلك، أرسلت إلى نجاشي الحبشة وفدًا يحمل إليه وإلى بطارقته الهدايا، ليرد هؤلاء المهاجرين، ويمنعهم من الإقامة في أرضه، فلم يرضَ النجاشي بذلك، بل استحضر المهاجرين إليه، وسألهم عما هم عليه من الدين، فكلمه جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – وأبان له ما كانت عليه حالتهم قبل الإسلام، وما جاءهم به الإسلام من ترك عبادة الأوثان، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وما أرشدهم إليه من مكارم الأخلاق، وقرأ عليه جعفر أول سورة «مريم» المشتملة على قصة مولد المسيح عيسى ابن مريم – عليه الصلاة والسلام – فقال النجاشي: إن هذا مثل الذي جاء به المسيح. ثم سألهم عما يتقوله

عليهم وفد قريش في حق المسيح. فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا: «هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فقال النجاشي: إن عيسى بن مريم لا يزيد على ذلك. ثم قال للمهاجرين: اذهبوا فأنتم آمنون. ورد على وفد قريش هداياهم، فرجعوا إلى قومهم خائبين[1]!

---

[1] ينظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢/٣٨٩).

بيعة أهل المدينة

لما رأى رسول الله ﷺ أن كفار قريش لا ينفكون عن مقاومته ومعارضته في تأدية رسالة ربه، ألهمه الله تعالى أن يعرض نفسه على غيرهم من كبار العرب، عسى أن يجد منهم حماية وعضدًا يعينه على تأدية الرسالة، وتبليغ الدعوة؛ فكان ﷺ يخرج في مواسم العرب وأسواقهم التي كانوا يقصدونها للتجارة والمفاخرة، وخصوصًا مواسم الحج، داعيًا إياهم إلى الله تعالى، قارئًا عليهم القرآن الكريم، طالبًا منهم نصره حتى يؤدي رسالة ربه، فلم يكونوا يجيبونه، إلى أن قدم وفد من المدينة المنورة من قبيلة (الأوس) يريدون أن يعقدوا حلفًا مع قريش لينصروهم على بني عمهم (الخزرج).

فلما علم النبي ﷺ بقدومهم قابلهم، وقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟ أنا رسول الله، بعثني الله إلى العباد.

أدعوهم إلى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»، وتلا عليهم شيئًا من القرآن، وذكر لهم أمور الإسلام؛ فمال بعضهم إلى قبول الإسلام، وأَبَى الآخرون، فانصرف الجميع إلى المدينة دون أن يسلموا، ثم وفد في موسم الحج جماعة من الخزرج، فقابلهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه، وكانوا ستة رجال، فأسلموا جميعًا ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل، وهم أول من أسلم من عرب المدينة.

فلما كان العام المقبل، وقدم خمسة منهم في اثني عشر رجلًا: عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، واجتمعوا بالنبي ﷺ عند العقبة، وأسلم باقيهم، وبايعوا كلهم رسول الله ﷺ على ألا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم

وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف - أرسل معهم من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين. وبذلك انتشر الإسلام في دور المدينة وصار حديث القوم في مجتمعاتهم ونواديهم. وقد سميت هذه البيعة: (بيعة العقبة الأولى)[1].

وفي موسم الحج في العام الذي يلي بيعة العقبة الأولى، وفد إلى مكة كثيرون من أهل المدينة، فقابلهم رسول الله ﷺ ووعدهم المقابلة ليلًا عند العقبة، وأمرهم أن يكتموا أمرهم، فلا يطلع على ذلك أحد من كفار قريش. فتوجهوا إلى موعدهم في منتصف الليل، وكان مع النبي ﷺ عمه العباس وكان باقيًا على دين قومه، وإنما أحضره معه ليتوثق

---

[1] ينظر: «السيرة النبوية»، لابن هشام (٢/٢٧٩)، و«جامع الآثار»، لابن ناصر الدين (٤/١٩٧).

له فلما اجتمعوا، قال لهم العباس: إن ابن أخي هذا لم يزل في منعة من قومه، فإن كنتم ترون أنكم قوامون له بما دعوتموه إليه من البيعة، ومانعوه ممن خالفه. فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإلا فدعوه بين عشيرته. فقال كبيرهم: إنما نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله. وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يبين لهم شروط البيعة، فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم»، فبايعوه على ذلك، وكانوا ثلاثًا وسبعين رجلًا، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومعهم امرأتان. وسميت هذه البيعة: (بيعة العقبة الثانية)[1].

---

[1] للاستزادة يراجع: «جامع الآثار»، لابن ناصر الدين (٢١١/٤)، و«الروض الأنف» (٧٧/٤).

واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر نقيبًا؛ تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وقال لهؤلاء النقباء: «أنتم كفلاء على قومكم، كلٌّ على عشيرته»، فلما رجعوا إلى المدينة ظهر الإسلام فيها أكثر من المرة الأولى.

وقد شعرت قريش بهذ البيعة. فازداد أذاهم للمسلمين الموجودين بمكة، فأشار رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة. فصاروا يتسللون إليها وحدانًا وجماعات مختفين عن أعين قريش، حتى إنه لم يبقَ بمكة إلا أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب، وقليلون ممن لم يقدروا على الهجرة. وقد أراد أبو بكر - رضي الله عنه - الهجرة، فأشار عليه النبي ﷺ بالانتظار حتى يأذن الله تعالى له ﷺ بالهجرة، فانتظر أبو بكر - رضي

الله عنه - وأعد لذلك راحلتين كانتا عنده؛ إحداهما له، والأخرى لرسول الله ﷺ.

هجرة رسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة[١]

لما علم كفار قريش أن رسول الله ﷺ صارت له شيعة وأنصار من غيرهم، ورأوا مهاجرة أصحابه إلى أولئك، الأنصار الذين بايعوه على المدافعة عنه حتى الموت؛ اجتمع رؤساؤهم وكبارهم في دار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون بالنبي ﷺ، فقال قائل منهم: نحبسه مكبلًا بالحديد حتى يموت. وقال آخر: نخرجه وننفيه من بلادنا. فقال أحد كبرائهم: ما هذا ولا ذاك برأي؛ لأنه إن حُبس ظهر خبره، فيأتي أصحابه وينزعونه من بين أيديكم. وإن نُفي لم تأمنوا أن

---

[١] يراجع في أحداث الهجرة: «البداية والنهاية»، لابن كثير (٢٠٦/٣)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢٢٤/٣).

يتغلب على من يحل بحيهم من العرب بحسن حديثه وحلاوة منطقه، حتى يتبعوه، فيسير بهم إليكم. فقال الطاغية أبو جهل: الرأي أن نختار من كل قبيلة فتًى جَلْدًا، ثم يضربه أولئك الفتيان ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل جميعًا، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميع القبائل. فأعجبهم هذا الرأي، واتفقوا جميعًا، وعينوا الفتيان والليلة التي أرادوا تنفيذ هذا الأمر في سَحَرِها[1]، فأعلم الله تعالى رسوله ﷺ بما أجمع عليه أعداؤه، وأذن له سبحانه وتعالى بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة)، فذهب إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وأخبره وأذن له أن يصحبه، واتفقا على إعداد الراحلتين اللتين هيأهما أبو بكر الصديق

---

[1] السَّحَر: آخر الليل.

لذلك، واختارا دليلًا يسلك بهما أقرب الطريق، وتواعدا على أن يبتدئا السير في الليلة التي اتفقت قريش عليها. وفي تلك الليلة أمر عليه الصلاة والسلام ابن عمه على بن أبي طالب أن ينام في مكانه، ويتغطى بغطائه، حتى لا يشعر أحد بمبارحته بيته.

وخرج ﷺ وفتيان قريش متجمهرون على باب بيته وهو يتلو سورة «يس»، فلم يكد يصل إليهم حتى بلغ قوله تعالى:

﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩]

فجعل يكررها حتى ألقى الله تعالى عليهم النوم، وعميت أبصارهم فلم يبصروه، ولم يشعروا به، وتوجه إلى دار أبي بكر، وخرجا معًا من خَوْخَة في ظهر البيت، وتوجها إلى

(جبل ثور)[1] بأسفل مكة، فدخلا في غاره، وأصبحت فتيان قريش تنتظر خروجه ﷺ فلما تبين لقريش أن فتيانهم إنما باتوا يحرسون علي بن أبي طالب، لا محمدًا ﷺ؛ هاجت عواطفهم، وارتبكوا في أمرهم، ثم أرسلوا رسلهم في طلبه والبحث عنه من جميع الجهات، وجعلوا لمن يأتيهم به مائة ناقة، فذهبت رسلهم تقتفي أثره، وقد وصل بعضهم إلى ذلك الغار الصغير الذي لو التفت فيه قليلًا لرأى من فيه، فحزن أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لظنه أنهم قد أدركوهما، فقال النبي ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

---

[1] جبل ثور هو جبل ضخم يقع جنوب مكة، يُرى من عمرة التنعيم فيه من الشمال (غار ثور) المشهور، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ٤٨.

فصرف الله أبصار هؤلاء القوم وبصائرهم، حتى لم يلتفت إلى داخل ذلك الغار أحد منهم، بل جزم طاغيتهم أمية بن خلف، بأنه لا يمكن اختفاؤهما به، لِما رأوا من نسج العنكبوت وتعشيش الحمام على بابه.

وقد أقام رسول الله ﷺ وصاحبه بالغار ثلاث ليالٍ حتى ينقطع طلب القوم عنهما، وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، ثم يصبح في القوم ويستمع منهم الأخبار عن رسول الله وصاحبه، فيأتيهما كل ليلة بما سمع، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام في كل ليلة من هذه الليالي، وقد أمر عبد الله بن أبي بكر غلامه بأن يرعى الغنم ويأتي بها إلى الغار ليختفي أثره وأثر أسماء.

وفي صبيحة الليلة الثالثة من مبيت رسول الله ﷺ وصاحبه بالغار، وهي صبيحة يوم الإثنين في الأسبوع الأول

من ربيع الأول سنة الهجرة، وهي سنة ثلاث وخمسين من مولده ﷺ، وسنة ثلاث عشرة من البعثة المحمدية - جاءهما بالراحلتين عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أريقط الذي كانا استأجراه ليدلهما على الطريق، فركبا، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة ليخدمهما، وسلك بهما الدليل أسفل مكة، ثم مضى بهما في طريق الساحل، وبينما هم في الطريق إذ لحقهم سراقة بن مالك المدلجي، فلما قرب منهم عثرت فرسه حتى سقط عنها، ثم ركبها وسار حتى سمع قراءة النبي ﷺ، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فساخت قوائم فرس سراقة في الأرض فسقط عنها، ولم تنهض إلا بعد أن استغاث صاحبها بالنبي ﷺ، وقد شاهد غبارًا يتصاعد كالدخان من آثار خروج قوائم فرسه من الأرض، فداخله رعب شديد، ونادى يطلب الأمان، فوقف

رسول الله ﷺ ومن معه حتى جاءهم وعرض عليهم الزاد والمتاع، فلم يقبلوا منه شيئًا، وإنما قال له: «اكْتُم عنا»، فسألهم كتاب أمن، فكتب له أبو بكر ما طلب بأمر رسول الله ﷺ، وعاد سراقة من حيث أتى، كأنما ما رأى، واستمر رسول الله وصاحبه في طريقهما حتى وصلا «قباء»[١] في يوم الإثنين من ربيع الأول، فنزل بها رسول الله ﷺ على بني عمرو بن عوف، ونزل أبو بكر رضى الله عنه بالسنح[٢] على خارجة بن زيد، ومكث رسول الله ﷺ بقباء ليالي أنشأ فيها مسجدًا، وصلى فيه ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار،

---

[١] موضع يقع قِبلي المدينة، وهو متصل بها، ويعد مسجد قباء من أحيائه، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ٢٢٢.

[٢] محلة بالمدينة.

وقد أدركه ﷺ بقباء علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد أن أقام بمكة بعده بضعة أيام ليؤدي ما كان عنده من الودائع إلى أربابها.

وقد كان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله ﷺ، يخرجون خارج المدينة يترقبون مقدمة كل يوم؛ حتى يردهم حر الظهيرة، فبعد أن رجعوا إلى منازلهم يومًا سمعوا من ينادي بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا حظكم الذى تنتظرون. فخرجوا وتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحَرَّة[1] قبل نزوله بقباء.

---

[1] هي الأرض ذات الحجارة السوداء.

وتحول ﷺ من قباء إلى المدينة، يحيط به الأنصار فرحين متقلدي سيوفهم، ما بين ماشٍ وراكب، يتنازعون زمام ناقته، كلٌّ يريد أن ينزله في داره، والنساء والصبيان والولائد ينشدون:

طلع البدر علـــينا من ثنيـات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعـــــا لله داع
أيها المبعوث فينـــا جئت بالأمر المطاع

وكان ذلك في يوم الجمعة، فأدركته صلاتها في ديار بني سالم بن عوف، فنزل وصلاها، ثم ركب وسار، وكلما مر على دار من دور الأنصار يتضرع إليه أهلها أن ينزل عليهم، ويأخذون بزمام ناقته فيقول: "دعوها فإنها مأمورة"، فلم تزل سائرة حتى أتت فناء بني عدي بن النجار، أخواله

ﷺ، فبركت أمام دار أبي أيوب الأنصارى، فقال ﷺ: هٰهنا المنزل إن شاء الله تعالى.

ونزل بدار أبي أيوب، وأقام بها شهرًا حتى اشترى الموضع الذي بركت فيه الناقة، وبنى فيه المسجد، وبنى بجواره حجرتين لزوجتيه عائشة وسودة، وأرسل إلى مكة من استحضر له أهله، كما أرسل أبو بكر - رضي الله عنه - من استحضر أهله، فقدمت سودة زوج النبي ﷺ، وفاطمة وأم كلثوم بنتاه، وقدم عبد الله بن أبي بكر بزوجة أبيه وأخته عائشة، وأسماء زوج الزبير بن العوام، وتلاحق المهاجرون، فلم يبقَ من المسلمين إلا قليل ممن لم يتيسر لهم الرحيل، أما زينب ابنته ﷺ فمنعها زوجها أبو العاص ابن الربيع.

ولما تمت الهجرة إلى المدينة، تنافس الأنصار في المهاجرين، كلٌّ يريد أن يكون له منهم الحظ الأوفر، فكانوا يقترعون

عليهم في النزول، ورأى رسول الله ﷺ أن يقوى الإخاء بينهم، فآخى بين كل أنصاري ونزيله من المهاجرين، فكان الأنصار يؤثرون المهاجرين على أنفسهم، وذلك أعلى درجة تقتضيها الأخوة في الله تعالى.

الإسراء والمعراج[١]

قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة بقليل أكرمه الله تعالى بالإسراء والمعراج.

أما الإسراء، فهو توجهه ﷺ من المسجد الحرام الذى فيه الكعبة المشرفة إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس (بالشام)؛ ليريه الله سبحانه وتعالى من عجائب آياته ما يناسب قدره العظيم.

فقد ركب ﷺ - بأمر الله تعالى - البراق، وهو دابة ليست كدوابنا هذه، وإنما هي شيء سخره الله تعالى لرسوله إكرامًا وتعظيمًا، يضع ذلك البراق حافره عند منتهى طرفه، فسار به من المسجد الحرام بمكة حتى وصل إلى بيت

---

[١] ينظر في الإسراء والمعراج: «السيرة الحلبية» (١/٥١٤)، و«الروض الأنف» (٣/٢٥١).

المقدس في ليلته، فدخل المسجد وصلى فيه بالأنبياء – عليهم السلام – إمامًا.

وأما المعراج، فبعد أن خرج النبي ﷺ من بيت المقدس ركب البراق وصعد به إلى السماوات، فكان كلما وصل إلى سماء يستفتح جبريل فيقال: من أنت؟ ومن معك؟ فيقول: جبريل ومحمد. فيقال: أَوَقَدْ بُعث إليه؟ فيقول: نعم. فيُفتح لهما مع الترحيب والدعاء بالخير، حتى انتهيا إلى السماء السابعة، وبعدها توجه ﷺ إلى سدرة المنتهى، وهناك شاهد ما لا تدرك العقول البشرية حقيقته، وأوحى الله تعالى إلى نبيه ما أوحى، وفرض – سبحانه – عليه وعلى أمته في ذلك الوقت خمسين صلاة في كل يوم وليلة. ونزل ﷺ حتى وصل إلى السماء السادسة، ولقي فيها سيدنا موسى – عليه السلام – فأخبره بما فرض الله عليه وعلى أمته، فأشار عليه

أن يرجع فيسأل ربه التخفيف، فإن أمته لا تطيق ذلك. فلم يزل يرجع بين ربه - عز وجل - وبين موسى - عليه السلام - حتى جعل الله تعالى الصلوات المفروضة خمسًا في الفعل، وخمسين في الأجر.

ورجع ﷺ إلى مكة من ليلته، فلما أصبح ذهب إلى قريش، فأخبر القوم بما رآه، فكذَّب مَن كذَّب، وارتد بعض ضعاف القوم عن الإسلام، ثم امتحنوه بوصف بيت المقدس، فوصفه كما هو، ثم سألوه عن عِير[1] لهم في الطريق، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، ووقت قدومها، فكان كما قال، ومع ذلك لم تردعهم تلك الأدلة الظاهرة عن عنادهم وكفرهم. إلا من وفقه الله تعالى وثبته على دين

---

[1] قافلة تحمل تجارتهم. (ص)

الإسلام. وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل إلى النبي ﷺ وأراه كيفية الصلوات الخمس وأوقاتها، وكانت الصلاة قبل ذلك ركعتين صباحًا، وركعتين مساءً، كصلاة سيدنا إبراهيم - عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أسباب الغزوات ومشروعية القتال[١]

بعد أن استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وكان بها اليهود من بني قينقاع، وقريظة، والنضير، أقرهم ﷺ على دينهم وأموالهم، واشترط لهم وعليهم شروطًا، وكانوا مع ذلك يظهرون العداوة والبغضاء للمسلمين، ويساعدهم جماعة من عرب المدينة، كانوا يظهرون الإسلام وهم في الباطن كفار، وكانوا يُعْرَفون بالمنافقين يرأسهم عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول، وقد قبل ﷺ من هاتين الفئتين (اليهود والمنافقين) ظواهرهم، فلم يحاربهم ولم يحاربوه، بل كان يقاوم الإنكار

---

[١] يراجع ما كتبه الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله - في كتابه: «القرآن والقتال»، وأيضًا ما كتبه الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي - رحمه الله - في كتابه: «الجهاد في الإسلام كيف نفهمه ؟وكيف نمارسه؟».

بالحجج الدامغة والحكم البالغة، ولم يكن يقاتل أحدًا على الدخول في دين الله، بل كان يدعو إليه، ويجاهد في سبيله بإقامة ساطع الحجج وقاطع البراهين، ولكن لما كانت قريش أمة معادية له، مقاومة لدعوته ومعارضة له فيها، وقد آذته وآذت المسلمين، وأخرجتهم من ديارهم واستولت على ما تركوه بمكة من الأموال وآذت المستضعفين الذين لم يقدروا على الهجرة؛ أذن الله تعالى لرسوله ﷺ بقتالهم وقتال كل مُعتدٍ صادٍّ عن الدعوة.

فأول ما بدأ به رسول الله ﷺ من ذلك، مُصادرة تجارة قريش التي كانوا يذهبون بها إلى الشام والتى يجلبونها منها.

وكان بعد ذلك عندما تدعو الحال لقتال من يقف في وجه الدعوة من قريش أو غيرهم، يخرج إلى القتال بنفسه ومعه المقاتلون من المسلمين، وتارة يبعث مع المقاتلين من يختاره

لقيادتهم، وقد سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه (غزوة) سواء أحارب فيها أم لم يحارب، وسموا ما بعث فيه أحد القواد (سرية).

ففي السنة الأولى من الهجرة: بعث سريتين.

وفي السنة الثانية: غزا بنفسه سبع غزوات، وبعث سرية واحدة، وأكبر غزواتها غزوة بدر.

وفي السنة الثالثة: غزا بنفسه أربع غزوات، وبعث سرية واحدة، وأهم غزواتها أُحد.

وفي السنة الرابعة: غزا ثلاث غزوات، وبعث ثلاث سرايا.

وفي السنة الخامسة: غزا أربع غزوات، أشهرها غزوة الخندق.

وفي السنة السادسة: غزا ثلاث غزوات، وبعث إحدى عشرة سرية ومن غزواتها غزوة الحديبية.

وفي السنة السابعة: غزا غزوة واحدة، وهي غزوة خيبر، وبعث ثلاث سرايا.

وفي السنة الثامنة: غزا أربع غزوات، وبعث عشر سرايا، وأكبر غزواتها غزوة فتح مكة، وغزوة حُنَين.

وفي السنة التاسعة: غزا غزوة واحدة، وهي غزوة تبوك وبعث سرية واحدة.

وفي السنة العاشرة: بعث سريتين، وفيها حج حجة الوداع.

وفي السنة الحادية عشرة: بعث سرية واحدة.

فجملة الغزوات التي خرج للقتال فيها بنفسه ﷺ سبع وعشرون غزوة، وجملة السرايا التي بعث فيها القواد ولم يخرج فيها بنفسه خمس وثلاثون سرية.

غزوة بدر الكبرى[١]

كان من عادة قريش أن تذهب بتجارتها إلى الشام لتبيع وتشتري، فتَمُرُّ في ذهابها وإيابها بطريق المدينة، ففي شهر جمادى الثانية من السنة الثانية للهجرة، بعثت قريش بأعظم تجارة لها إلى الشام في عير كبير[٢] خرج بها أبو سفيان بن حرب في بضعة وثلاثين رجلًا من قريش، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، خرج إليهم في مائة وخمسين رجلًا من المهاجرين، فلم يدركهم، ولما علم برجوعهم من الشام خرج إليهم في العشر الأوائل من شهر رمضان في ثلاثمائة

---

[١] ينظر: «عيون الأثر»، لابن سيد الناس (٢٨١/١)، و«السيرة الحلبية» (١٩٧/٢).

[٢] كانوا يسمون الركب الخارج بالتجارة عِيرًا. (ص)

وأربعة عشر رجلًا من المهاجرين والأنصار، معهم فَرَسان وسبعون بعيرًا، وسار حتى عسكر بالروحاء[1]، وكان أبو سفيان حين قرب من الحجاز يسير محترسًا، فلما علم بخروج رسول الله ﷺ، ترك الطريق المسلوكة، وسار بساحل البحر، ثم بعث رجلًا إلى مكة ليخبر قريشًا، ويستنفرهم لحفظ أموالهم، فقام منهم تسعمائة وخمسون رجلًا، فيهم مائة فارس وسبعمائة بعير، فلما علم رسول الله ﷺ بخروج هذا الجمع، استشار أصحابه فأشاروا بالإقدام، فارتجل حتى

---

[1] موضع على بُعد أربعين ميلًا من جنوب المدينة، [وهي محطة على الطريق بين المدينة وبدر على مسافة أربعة وسبعين كيلو مترًا من المدينة]، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ١٣١.

وصل قريبًا من وادي بدر[١]، فبلغه أن أبا سفيان قد نجا بالتجارة، وأن قريشًا وراء الوادي؛ لأن أبا جهل أشار عليهم بعد أن علموا بنجاة العير ألا يرجعوا حتى يصلوا بدرًا، فينحروا ويطعموا الطعام ويسقوا الخمور فتسمع بهم العرب فتهابهم أبدًا، فسار جيش المشركين حتي نزلوا بالعدوة القصوى[٢] من الوادي، وسار رسول الله ﷺ بأصحابه حتي نزلوا بالعدوة الدنيا من الوادي، ولم يكن بها ماء فأرسل الله تعالى الغيث، حتى سال الوادي، فشرب المسلمون

---

[١] هي الآن بلدة كبيرة عامرة على بعد نحو مائة وخمسين كيلو مترًا من المدينة المنورة، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ٤٤.

[٢] عدوة الوادي: شاطئه. القصوى: البعيدة. والدنيا: القريبة. [جانب وادي بُلَيل]، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ١٨٧.

وملؤوا أسقيتهم، وتلبدت لهم الأرض حتي سهل المسير فيها. أما الجهة التي كان بها المشركون، فإن المطر أوحلها فتقدم النبي ﷺ بجيشه حتى نزل بأقرب ماء من القوم، وأمر ببناء حوض يملؤه ماء لجيشه، كما أمر بأن يُغوَّر ما وراءه من الآبار حتى ينقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين، ثم أذن لأصحابه أن يبنوا له عَرِيشًا يأوي إليه، فبُني له فوق تل مشرف على ميدان القتال.

فلما تراءى الجيشان[1]، قام النبي ﷺ بتعديل صفوف جيشه حتي صاروا كالبنيان المرصوص، ونظر لقريش فقال اللّٰهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللّٰهم فنصرك الذي وعدتني. ثم برز

---

[1] كان ذلك في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة. (ص)

ثلاثة من صفوف المشركين، وهم عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شيبة وطلبوا من يخرج إليهم للمبارزة، فبرز لهم ثلاثة من الأنصار، فقال المشركون إنما نطلب أكفاءنا من بني عمنا (أي القرشيين). فبرز لهم حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب؛ فكان حمزة بإزاء شيبة، وكان عبيدة بإزاء عتبة، وكان علي بإزاء الوليد. فأما حمزة وعلي فقد أجهز كل منهما على مبارزه وأما عبيدة فقد ضرب صاحبه ضربة لم تمته وضربه صاحبه مثلها، فجاء علي وحمزة فأجهزا على مبارز عبيدة، وحملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين[1].

---

[1] وقد مات من آثار جراحه – رضي الله عنه. (ص)

وبدأ الهجوم، فخرج رسول الله ﷺ من العريش يشجع الناس ويقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]

وأخذ من الحصباء حفنة ورمى بها في وجوه المشركين قائلًا: «شاهت الوجوه»[١]، ثم قال لأصحابه: شدوا عليهم. فحمي الوطيس[٢]، وأمد الله تعالى المسلمين بملائكة النصر، فلم تك إلا ساعة حتى انهزم المشركون وولوا الأدبار، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتلوا منهم سبعين رجلًا وأسروا سبعين ومن بين القتلى كثيرون من صناديدهم.

---

[١] شاهت الوجوه: قبحت. (ص)

[٢] أي: اشتدت الحرب. (ص)

ولما انتهت الموقعة أمر ﷺ بدفن الشهداء من المسلمين، كما أمر بإلقاء قتلي المشركين في قليب بدر، ولم يستشهد من المسلمين سوى: أربعة عشر رجلًا رضي الله عنهم.

وأمر رسول الله ﷺ بجمع الغنائم فجُمعت، وأرسل من يبشر أهل المدينة بالنصر، ثم عاد عليه الصلاة والسلام بالغنائم والأسرى إلى المدينة، فقسم الغنائم بين المجاهدين ومن في حكمهم من المخلفين لمصلحة، وحفظ لورثة الشهداء أسهمهم. وأما الأسرى، فرأى بعد أن استشار أصحابه فيهم أن يستبقيهم، ويقبل الفداء من قريش عمن تريد فداءه، فبعثت قريش بالمال لفداء أسراها، فكان فداء الرجل من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم بحسب منزلته، فيهم ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المسلمين يعلمهم، فكان ذلك فداءه.

وكان من الأسرى: العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، فلم يعفه من الفداء، مع أنه إنما خرج لهذه الحرب مكرهًا، وكان منهم أيضًا: أبو العاص بن الربيع، زوج زينب ابنة رسول الله ﷺ، وقد افتدته رضي الله عنها بقلادتها، فرُدَّت إليها، واشترط عليه النبي ﷺ أن يمكنها من الهجرة إلى المدينة، فوفى بشرطه، وقد أسلم قبل فتح مكة، فرد عليه النبي ﷺ زوجته. ومنهم مَن مَنَّ عليه النبي ﷺ بغير فداء، كأبي عزة الجمحي الذى كان يثير بشعره قريشًا ضد المسلمين، فطلب من رسول الله ﷺ أن يفكه من الأسر، على أن لا يعود لمثل ذلك، فأطلقه على هذا الشرط.

ومن قتلى قريش: أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعقبة وشيبة ابنا ربيعة، وحنظلة بن أبي سفيان، والوليد بن عتبة، والجراح والد أبي عبيدة.

وأما شهداء بدر الأربعة عشر، فمنهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، فمن المهاجرين: عبيدة بن الحارث، وعمير بن أبي وقاص. ومن الأنصار: عوف، ومعوذ ابنا عفراء الخزرجيان، وهما اللذان قتلا أبا جهل ومنهم سعد بن خيثمة الأوسي، أحد النقباء في بيعة العقبة.

وهذه الغزوة الكبرى التي انتصر فيها المسلمون ذلك الانتصار الباهر مع قلة عددهم وعُددهم، وكثرة عدد العدو وعُدده، من الأدلة الكبرى على عناية الله تعالى بالمسلمين الصادقي العزيمة، الممتلئة قلوبهم طمأنينة بالله تعالى وثقة بما وعدهم على لسان رسوله ﷺ من الفوز والنصر.

ولقد دخل بسببها الرعب في قلوب العرب كافة، فكانت للمسلمين عزًّا وهيبة وقوة.

غزوة أُحُد

بعد أن مضى على غزوة بدر عام كامل، وكانت عير قريش لم تزل موقوفة بدار الندوة، اجتمع من بقي من عظمائهم إلى أبي سفيان، واتفقوا على أن يتركوا ربح أموالهم في تلك العير استعدادًا لحرب رسول الله ﷺ، وكان ربحها نحو خمسين ألف دينار، فاجتمع منهم ثلاثة آلاف رجل: ومعهم حلفاؤهم من بني المصطلق وغيرهم، وخرجوا بالقيان والدفوف والخمور، ومعهم هند امرأة أبي سفيان، وخمس عشرة امرأة ليشجعنهم، وساروا حتي وصلوا إلى ذي الحليفة بالقرب من المدينة وقد كان العباس بن عبد المطلب بعث إلى رسول الله ﷺ بكتاب يخبره فيه بخروج القوم، فجمع ﷺ أصحابه وأخبرهم الخبر واستشارهم في البقاء بالمدينة

حتى إذا قدموا إليها قاتلوهم، فكان رأي الأكثرين الخروج للقاء العدو.

ففي يوم الجمعة لعشر خلون من شوال في السنة الثالثة من الهجرة، صلى الجمعة بالناس وحضهم في خطبتها على الثبات والصبر، ثم دخل حجرته فلبس درعين، وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره، ولما خرج للناس بعدته هذه، قال بعض من أشار بالخروج: نتبع ما عرضته من البقاء. فقال: «ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه»، ثم عقد الألوية واستعرض الجيش، وسار بألف رجل حتى منتصف الطريق بين المدينة وجبل أحد[1]، فرجع عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول رئيس المنافقين في

---

[1] أُحُد: جبلٌ في شمال المدينة. (ص)

ثلاثمائة من أصحابه، ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أحد، وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة، وقد نزل المشركون ببطن الوادي، بالقرب من أحد، فاستحضر رسول الله ﷺ الرماة وكانوا خمسين رجلًا،فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل، وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم، ثم عدل الصفوف وخطب في الجيش بالنصائح والمواعظ، ثم خرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير بن العوام فقتله، وقتل علي بن أبي طالب حامل لواء المشركين، وهو حمزة بن أرطاة، وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق يطلب المبارزة، فهَمَّ أبو بكر أن يبرز إليه، فمنعه النبي ﷺ قائلًا له: «متعنا بنفسك يا أبا بكر».

والتقت الصفوف، وجعلت نساء قريش يضربن الدفوف، وينشدن الأشعار تهييجًا لرجالهن، فدارت رحى

الحرب، وكانت الغلبة للمسلمين، إلا أن الرماة لما رأوا انكشاف المشركين، ترك أكثرهم مكانهم الذى أمروا ألا يتحولوا عنه، وتحولوا إلى العسكر وخلوا ظهر المسلمين للعدو، واشتغل بعض الجيش بالغنائم، فاختلت الصفوف، فتحولت فرسان المشركين بقيادة خالد بن الوليد وجاؤوهم من خلفهم، فأصابوا فيهم، وأذيع قتل رسول الله ﷺ، فأضعف ذلك من عزائم الجيش، وانهزم جماعة من المسلمين، وانكشف مكان النبي ﷺ للعدو فأصابته الحجارة، ووقع لشقه فأصيبت رباعيته[1]، وجرح وجهه وشفته، ودخلت

---

[1] الرُّباعية: هي السن التي بين الناب والثنية. (ص)

حلقتان من المغفر[1] في وجنتيه، وأحاط به الكفار، فدافع دونه خمسة من الأنصار وعاد إليهم فتية من المسلمين، حتى أجلوا الكفار عن رسول الله ﷺ، وكان ممن امتاز في المدافعة عن رسول الله ﷺ في ذلك الوقت سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو طلحة الأنصاري الذي نثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ، وأبو دجانة الذي كان النبل يقع في ظهره وهو منحنٍ على رسول الله ﷺ.

وبعد أن أُجلي الكفار عن رسول الله ﷺ، رآه كعب بن مالك الأنصاري، فشرع ينادي: يا معشر المسلمين، أبشروا.

---

[1] المِغْفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، وقد عالج أبو عبيدة بن الجراح نزع هاتين الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ حتى نزعهما، وكُسرت في ذلك ثنيتاه - رضي الله عنه. (ص)

فأشار إليه رسول الله ﷺ أن يسكت، ثم سار ﷺ نحو الشِّعْب، بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن عبادة، ومعه أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، والزبير، وغيرهم. وجاءت فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - فغسلت عنه الدم، وضمدت جروحه. وأقبل أُبَيٌّ بن خلف من المشركين يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا. فطعنه النبي ﷺ بحربة فوقع عن فرسه وأصيب في عنقه، ومات بسبب ذلك[1]، ثم أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلو صخرة في الشِّعْب لينظر جماعة من المشركين، فلم يتمكن من القيام بنفسه، فأعانه طلحة بن عبيد الله حتى أصعده على الصخرة، فرأى جماعة من المشركين على ظهر الجبل، فقال: لا ينبغي لهم أن يعلونا.

---

[1] لم يقتل بيد رسول الله ﷺ أحد غيره، لا في هذه الغزوة ولا في غيرها. (ص)

فأرسل إليهم عمر بن الخطاب في جماعة فأنزلوهم. وقد صعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته: إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، اُعْلُ هُبل[1]. فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن يجيبه، فأجابه عمر - رضي الله تعالى عنه - بقوله: الله أعلى وأجل، لا إله سواه، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال: هَلُمَّ إليَّ يا عمر. فأذن له النبي ﷺ أن يأتيه، فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟ فقال عمر: اللّٰهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن. ثم نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر، العام المقبل. فأجيب من قبل المسلمين، بأمر النبي ﷺ:

---

[1] هُبَل: اسم صنم لهم. (ص)

نعم، هو بيننا وبينك موعد[١]. ثم انصرفوا، وتفقد رسول الله ﷺ القتلى وأمر بدفنهم، وعاد إلى المدينة في منتصف شوال.

وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين في هذه الغزوة سبعين شهيدًا، منهم أربعة من المهاجرين، والباقون من الأنصار، وقتل من المشركين اثنان وعشرون.

وجعلت زوجة أبي سفيان ومن معها من النساء يمثِّلْن[٢] بالشهداء، فجدعن الآذان والأنوف، واتخذن منها قلائد،

---

[١] وقد أخلف أبو سفيان موعده؛ فلم يخرج في العام التالي، وأما النبي ﷺ فقد خرج في ذلك العام إلى بدر ولم يلقَ أحدًا، وسميت هذه الغزوة غزوة بدر الأخرى أو الصغرى. (ص)

[٢] التمثيل: هو جدع الأنف للميت، ينظر: «مختار الصحاح»، ص٢٩.

وبقرت زوجة أبي سفيان بطن حمزة ولاكت كبده، تشفيًا من نكايتهم في غزوة بدر.

وأمر رسول الله ﷺ بعد وصوله إلى المدينة بليلة واحدة أن يخرج معه - لتعقب العدو - كل من حضر هذه الغزوة، فلما شعر أبو سفيان بذلك هَمَّ أن يعود بالمشركين للقاء المسلمين، فقيل له إن محمدًا قد أقبل في جميع أصحابه، فخاف وانثنى عن عزمه، واستمر راجعًا إلى مكة، وأقام رسول الله ﷺ بأصحابه في حمراء الأسد[1] ثلاثة أيام، وعاد إلى المدينة بعد أن تأكد من انصراف المشركين إلى مكة.

---

[1] موضع على ثمانية أميال من المدينة في طريق مكة، [وحمراء الأسد: جبل أحمر جنوب المدينة على مسافة عشرين كيلو مترًا]، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص١٠٣.

غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب

كان بين المسلمين من الخزرج وبين يهود بنى النضير المجاورين للمدينة عهد على التناصر، فخان اليهود عهدهم مع المسلمين؛ حيث هموا بقتل النبي ﷺ، فخرج عليه الصلاة والسلام إليهم في السنة الرابعة للهجرة حتى أجلاهم عن مواطنهم، فأورث الله تعالى المسلمين أرضهم وديارهم، ولم يقر لهؤلاء اليهود قرار بعد ذلك، فذهب جمع منهم إلى مكة، وقابلوا رؤساء قريش واتفقوا معهم ومع قبيلة غطفان على حرب المسلمين، فتجهزت قريش ومن تبعهم من كنانة، وتجهزت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، وتحزبوا جميعًا على محاربة المسلمين، حتى بلغ عددهم جميعهم عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان فلما سمع رسول الله ﷺ بتجمعهم لذلك استشار أصحابه فيما يعمل لمقاومتهم،

فأشار سلمان الفارسي - رضي الله عنه - بحفر خندق في شمال المدينة من الجهة التي تؤتَى منها المدينة، فحفروه. وجاءت قريش ومن معها من الأحزاب ونزلوا خلف الخندق، وجاء رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين أمام الخندق، واستمروا على هذه الحالة، يترامون بالنبل بضعًا وعشرين ليلة، وقد رتب رسول الله ﷺ حراسًا على الخندق، لئلا يقتحمه الأعداء ليلًا، وكان يحرس بنفسه أصعب جهة فيه، ولما طالت المدة اقتحم جماعة من المشركين الخندق بخيلهم، فمنهم من وقع فيه فاندق عنقه، ومنهم من برز له بعض شجعان المسلمين فقتله. وقد استمرت هذه المعركة يومًا كاملًا.

وقد بلغ النبي ﷺ أن يهود بنى قريظة القاطنين بجوار المدينة يريدون نقض ما بينهم وبينه من العهود، فاسترجع

من جيشه خمسمائة رجل لحراسة النساء والذراري. ولما علم المسلمون بأمر بنى قريظة اشتد وجلهم؛ لأن العدو قد أصبح محيطًا بهم من الخارج والداخل، ولكن الله سبحانه وتعالى قيض لرسول الله ﷺ من أنبث بين الأعداء يفرق جموعهم بالخديعة والحيلة، حتى استحكم الفشل بينهم، وخاف بعضهم بعضًا، وأرسل الله تعالى عليهم ريحًا باردة في ليل مظلم، أكفأت قدورهم، وطرحت آنيتهم، فارتحلوا من ليلتهم، وأزاح الله تعالى هذه الغمة التي تحزبت فيها الأحزاب من قبائل العرب واليهود على المسلمين، وكانت هذه الحادثة بين شهري شوال وذي القعدة من شهور السنة الخامسة للهجرة. واستشهد فيها من المسلمين ستة، وقتل من المشركين ثلاثة.

ولما عاد رسول الله ﷺ لم يخلع لباس الحرب حتى حاصر بني قريظة، لخيانتهم ونقضهم العهد، واستمر محاصرًا لهم خمسًا وعشرين ليلة حتى كادوا يهلكون، ولم يروا بدًّا من التسليم لما يحكم به رسول الله ﷺ، ورضوا بأن ينزلوا على حكم سيدهم سعد بن معاذ، فحكم بقتل رجالهم وسبى نسائهم وذراريهم وأخذ غنائمهم، فحبس الرجال في دور الأنصار حتى حفرت لهم خنادق ضربت أعناقهم فيها، وكانوا نحو سبعمائة رجل. وبذلك أراح الله المسلمين من شر مجاورة هؤلاء الأعداء.

غزوة الحديبية وصلحها

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة الخندق بقية السنة الخامسة للهجرة، وفي السنة السادسة خرج إلى بني لِحْيان الذين قتلوا عاصم بن ثابت ومن معه، فوجد القوم قد تفرقوا إلى ذي قرد. لرد إغارة عيينة بن حصن على لقاحه ﷺ، ففر العدو بعد مناوشة لم تطل، ثم خرج إلى بنى المصطلق لما بلغه أنهم يجمعون له الجموع، فهزمهم وغنم منهم أموالًا وسبايا.

وخرج ﷺ في ذي القعدة تلك السنة إلى مكة يقصد العمرة، وخرج معه من المهاجرين والأنصار ألف وخمسمائة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لم يخرج محاربًا، وأمر أصحابه ألا يستصحبوا معهم من السلاح إلا السيوف

مغمدة في قربها[١]، حتى لا يدخلوا المسجد الحرام إلا بسيوف مجردة، فسار عليه الصلاة والسلام بهذا الجمع حتى وصلوا عسفان[٢]، فجاءه من أخبره أن قريشًا اتفقت على صد المسلمين عن مكة، وتجهزت للحرب وأخرجت خالد بن الوليد في مائتى فارس، ليصدوا المسلمين عن التقدم، فسار المسلمون من أسفلها، حتى وصلوا إلى مهبط الحديبية[٣]، فبركت ناقته ﷺ فأمر أصحابه بالنزول، جاء رسول من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين،

---

[١] أي: موضوعة في جِرابها.

[٢] موضع على مرحلتين من مكة [هو بلد على بعد ثمانين كيلو مترًا من مكة شمالًا]، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ٢٩١.

[٣] الحديبية: بئر بقرب مكة [وتقع على مسافة اثنين وعشرين كيلو مترًا غرب مكة على طريق جدة]، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ٩٧.

فأخبره النبي ﷺ بمقصده. فلما رجع إلى قريش لم يثقوا به، فأرسلوا آخر، فلما رأى الهدي وسمع التلبية رجع، وقال لقريش: إن القوم جاؤوا معتمرين، وما ينبغى أن يصدوا، وما ينبغى أن تحج لخم وجذام وحمير، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب، فلم تسمع قريش لقوله وبعثوا آخر، فرأى من أصحاب رسول الله ﷺ عظيم احترامهم لنبيهم ومحبتهم له، فرجع إلى قريش وحدثهم بما رأى، وقال: إني والله ما رأيت ملكًا في قومه مثل محمد في أصحابه. فتكلم القوم فيما بينهم وقالوا: نرده عامنا ويرجع إلى قابل.

فأرسل رسول الله ﷺ إليهم عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في جِوار رجل من بني أمية ليعلمهم بقصده، وخرج معه عشرة من المسلمين لزيارة أقاربهم بمكة، فقالت قريش إن محمدًا لا يدخلها علينا عنوة أبدًا، ثم منعوا سيدنا

عثمان - رضي الله عنه - ومن معه من الرجوع، وشاع بين المسلمين أنه قد قتل، فدعا النبي ﷺ أصحابه للبيعة على القتال فبايعوه على ذلك[1] وبعث المشركون طلائعهم، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلًا.

ولما سمعت قريش بهذه البيعة، خافوا أن تدور عليهم الدائرة، فأرسلوا أحدهم إلى رسول الله ﷺ للمكالمة في الصلح، وبعد أن أطلقوا سبيل سيدنا عثمان ومن معه، أطلق المسلمون من أسروهم. واتفق معهم رسول الله ﷺ على قواعد الصلح، وهي أربعة أمور:

---

[1] وكان ذلك تحت شجرة سميت بشجرة الرضوان. وسميت هذه البيعة أيضًا بيعة الرضوان. (ص)

الأول: ترك الحرب بين الفريقين عشر سنين، والثانى: أن يرجع رسول الله والمسلمون من عامهم دون أن يدخلوا مكة، فإذا جاء العام التالي دخلوها بدون سلاح سوى السيوف في القرب، وأقاموا بها ثلاثة أيام بعد أن تخرج منها قريش، والثالث: أن من أتى المسلمين من قريش ردوه إليهم، ومن جاء من المسلمين لا يلزمون برده، والرابع: أن من أحب أن يدخل في عهد المسلمين دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، وأملى النبي ﷺ على علي بن أبي طالب فكتب بذلك وثيقة. وقد رضي المسلمون بما رضي به رسول الله ﷺ بعد أن تألموا من بعض هذه الشروط، ثم تحلل رسول الله ﷺ والمسلمون من

عمرتهم[١]، وعادوا إلى المدينة، وقد نزلت في هذه الحادثة سورة الفتح[٢].

---

[١] يقصد التي صدهم المشركون عن أدائها.

[٢] ينظر: «سبل الهدى والرشاد» (٥/ ٣٣).

مراسلة رسول الله ﷺ للملوك بعد صلح الحديبية

بعد تلك الهدنة التي تمت بصلح الحديبية، أمن المسلمون شر قريش وأصبحت طرق المواصلات مع سائر الجهات متيسرة، فشرع رسول الله ﷺ في نشر الدعوة وتعميمها، فكاتب ملوك الأرض يدعوهم وأممهم إلى الإسلام، واتخذ له خاتمًا نقشه (محمد رسول الله).

فبعث دحية الكلبى بكتاب إلى قيصر ملك الروم، وكان بالقدس، فلما وصله الكتاب، وكان أبو سفيان بالشام في تجارة، استدعاه فسأله عن نسب رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب. فسأله: هل تكلم بهذا القول أحد قبله؟ فقال: لا. فسأله: هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ فقال: لا. فسأله: هل كان من آبائه ملك؟ فقال: لا. فسأله: هل أشراف الناس يتبعونه أو ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم.

فسأله: فهل يزيدون أو ينقصون؟ فقال: بل يزيدون. فسأله: فهل يرتد أحد منهم كراهية في دينه؟ فقال: لا. فسأله: هل يغدر إذا عاهد؟ فقال: لا. فسأله: هل قاتلتموه؟ وكيف حربكم وحربه؟ فقال: حاربناه، وكانت الحرب بيننا وبينه سجالًا، مرة لنا ومرة علينا. فسأله: بمَ يأمركم؟ فقال: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهى عما كان يعبده آباؤنا، ويأمر بالصلاة والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. فاستنتج الملك مما ذكر له أنه نبي، وقال لأبي سفيان: إن كان ما كلمتنى به حقًّا؛ فسيملك موضع قدميَّ هاتين. ثم جمع عظماء الروم وحادثهم في اتباع هذا النبي فيقروا، وقد غلب عليه حب ملكه فلم يسلم، ورد دحية ردًّا جميلًا.

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير بكتاب إلى أمير بُصْرَى، فلما بلغ مؤتة[١] من قرى الشام، تعرض له شرحبيل الغساني فقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره.

وأرسل - عليه الصلاة والسلام - كتابًا إلى أمير دمشق التابع لملك الروم، فلما وصله الكتاب وقرأه، رمى به، واستعد لحرب المسلمين واستأذن ملكه في ذلك فلم يأذن له.

وأرسل - عليه الصلاة والسلام - حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من قبل ملك الروم، وكان بالإسكندرية، فلما قرأ قال لحاطب: ما منعه إن كان نبيًّا أن

---

[١] تقع مؤتة شرق الأردن على مسيرة أحد عشر كيلو مترًا جنوب الكرك، وهي الآن قرية عامرة بالسكان، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ٢٣٧.

يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال له حاطب: ألستَ تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟! فَلِمَ لم يمنعه الله حين أخذه قومه ليقتلوه؟! فقال المقوقس لحاطب: أحسنت(١). ولقد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضار. ولا بالكاهن الكذاب، وسأنظر. ثم كتب رد الجواب لرسول الله ﷺ بكلام لا اعتراف فيه ولا إنكار، وأهدى له جاريتين، إحداهما مارية التي تسرى بها - عليه الصلاة والسلام - ورُزق منها بولده إبراهيم.

وأرسل عليه الصلاة والسلام كتابًا إلى النجاشي، ملك الحبشة، فلما قرأه قال للرسول: إنى أعلم والله أن عيسى بَشَّر به، ولكن أعوانى بالحبشة قليل. وأرسل إلى كسرى ملك

(١) هذا من باب التنزل مع الخصم وليس تسليمًا لقوله.

الفرس، فاستكبر ومزق الكتاب، فمزق الله تعالى ملكه كل ممزق.

وأرسل إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين فأسلم وأسلم معه بعض قومه وأقره ﷺ أميرًا من قبله على جهة البحرين.

وأرسل إلى جعفر وعبد الله ابني الجلندي ملكي عمان، فأسلما بعد أن سألا عما يأمر به النبي وينهى عنه، فقال لهما رسول النبي ﷺ: إنه يأمر بطاعة الله - عز وجل - وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان والزنى وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

وأرسل - عليه الصلاة والسلام - إلى هودة بن على ملك اليمامة، فطلب منه رسول الله ﷺ أن يجعل له بعض الأمر، فلم يجبه.

غزوة خيبر[١]

بعد أن تم صلح الحديبية واستراح المسلمون من غزوات قريش، رأى رسول الله ﷺ أن يستريح أيضًا من أعدائه القريبين الذين يتربصون به الشر، وهم أهل خيبر الذين حزبوا الأحزاب على المسلمين في غزوة الخندق، فخرج ﷺ إلى خيبر في أول السنة السابعة للهجرة، وكانت خيبر محصنة بثمانية حصون. فعسكر المسلمون خارجها، وأمر رسول الله ﷺ بقطع نخيلهم ليرهبهم، فلما رآهم مصرين على القتال بدأهم بالمراماة واستمروا في المناوشة سبعة أيام، ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم، وتبعوهم

---

[١] خيبر: بلدة معروفة تبعد عن المدينة مائة وخمسة وستين كيلو مترًا شمالًا على طريق الشام، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص ١٠٩.

حتى دخلوا أول حصن. وانهزم الأعداء إلى الحصن الذى يليه، قاتلوا عنه قتالًا شديدًا حتى كادوا يردون المسلمين عنه، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم هذا الحصن حتى ألجؤوهم إلى الحصن الذى يليه وحاصروهم فيه، ومنعوا عنهم جداول الماء، فخرجوا وقاتلوا حتى انهزموا إلى حصن آخر، وهكذا حتى لم يبقَ غير الحصنين الأخيرين، فلم يقاوم أهلهما، بل سلموا طالبين حقن دمائهم، وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم لا يأخذ الواحد منهم إلا ثوبًا واحدًا على ظهره، فأجابهم رسول الله ﷺ لذلك، وغنم المسلمون من خيبر غنائم كثيرة، من دروع، وسيوف ورماح وأقواس، وحلي، وأثاث ومتاع، وغنم وطعام.

وقد قتل من اليهود في هذه الغزوة ثلاثة وتسعون قتيلًا. واستشهد من المسلمين خمسة عشر شهيدًا.

وفي هذه الغزوة أهدت امرأة يهودية لرسول الله ﷺ ذراع شاة مسمومة، فأخذ منها مضغة ثم لفظها؛ حيث أعلمه الله تعالى أنها مسمومة، وقد اعترفت تلك المرأة بما فعلت، وقالت: قلتُ: إن كان نبيًّا فلن يضره، وإن كان كاذبًا أراحنا الله منه، فعفا عنها ﷺ[1].

---

[1] للاستزادة يراجع: «السيرة الحلبية» (٣/٤٥)، و«السيرة النبوية»، لابن هشام (٤/ ٢٩٧).

فتح فَدَك[١]

وبعد فتح خيبر أرسل ﷺ إلى يهود فدك، فصالحوه على أن يتركوا أموالهم ويحقن دماءهم، فأجابهم لذلك.

رجوع بقية مهاجري الحبشة إلى المدينة

بعد رجوع المسلمين من خيبر، قدم من الحبشة بقية من كان فيها من المهاجرين، منهم جعفر بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري وقومه، بعد أن أقاموا بها عشر سنين.

وقد أسلم بعد غزوة خيبر ثلاثة من عظماء الرجال: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طليحة العبدري.

---

[١] فَدَك: قرية تقع شمال المدينة قرب خيبر، ينظر: «تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية» (٢/ ١٧٧).

عمرة القضاء

ولما حال الحول على صلح الحديبية، خرج رسول الله ﷺ بأصحابه الذين صُدُّوا معه عن البيت عام الحديبية، ليقضوا تلك العمرة التي صُدُّوا عنها - حسب صلح الحديبية - فلما وصلوا إلى مكة خرجت منها قريش ودخلها المسلمون وقضوا عمرتهم، وأقاموا بمكة ثلاثة أيام، ثم انصرفوا إلى المدينة بسلام.

سرية مؤتة[١]

في منتصف السنة الثامنة للهجرة بعث رسول الله ﷺ جيشًا مؤلَّفًا من ثلاثة آلاف مقاتل؛ للاقتصاص من عمرو بن شرحبيل أمير بُصْرَى من قبل الروم؛ لقتله الحارث بن عمير الذي بعثه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام. فلما بلغ هذا الجيش أرض مؤتة، قابلهم الروم والعرب المتنصرة في مائة وخمسين ألفًا، وكان قائد المسلمين زيد بن حارثة فقُتل، فتولى القيادة جعفر بن أبي طالب فقُتل، ثم عبد الله بن رواحة فقُتل. وكان هذا الترتيب بأمر رسول الله ﷺ، وبعد أن استُشهد من سماهم النبي ﷺ، اتفق الجيش على تولية

---

(١) هي أول حرب بين المسلمين والروم. (ص)

خالد بن الوليد، فجعل يخادع الأعداء حتى ألقى الله الرعب في قلوبهم وانصرفوا[١].

[١] ينظر: «السيرة النبوية»، لابن هشام (٥/ ٢٢)، و«الروض الأنف» (٧/ ١٦٤).

فتح مكة ونتائجه

كانت بطون[1] خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، كما كانت بنو بكر بن وائل في عهد قريش، وكانت بين هذين الحيين دماء، فثار بنو بكر على خزاعة، وساعدتهم قريش بالسلاح والأنفس وقاتلوهم. فقدم على رسول الله ﷺ نفر من خزاعة، وأخبروه بنقض قريش للعهد، فلما أحسَّت قريش بما فعلت، جاء منهم أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ ليقوِّي العهد ويزيد في المدة، فلم يجبه إلى ذلك، وتأكد المسلمون من نقض قريش للعهد، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يتجهزوا، وكتم عنهم الوجهة، فاجتمع لذلك عشرة آلاف

---

[1] أي: القبائل المتفرعة من خزاعة.

من المسلمين من المهاجرين والأنصار وطوائف من العرب، وخرج بهم رسول الله ﷺ لعشر مضت من شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة، وساروا حتى نزلوا بـ«مَرّ الظهران»[1] بقرب مكة، دون أن تعلم قريش بوجهتهم.

وكان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ خرج مهاجرًا إلى المدينة بأهله، فقابله عليه الصلاة والسلام في الطريق فأرجعه معه، وبعث بعياله إلى المدينة، وبينما جيش المسلمين بمر الظهران؛ إذ خرج أبو سفيان ومعه آخران يتجسسون الأخبار، لما يتوقعونه من عدم سكوت المسلمين على نقض العهد، فظفرت بهم جنود المسلمين، وكان أول

---

[1] مَرُّ الظهران: وادٍ من أودية الحجاز شمال مكة على مسافة اثنين وعشرين كيلو مترًا، ويصب في البحر جنوب جدة، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص١٨٤.

من لقي أبا سفيان العباس بن عبد المطلب، فأخذه معه حتى وصل به إلى خيمة رسول الله ﷺ، فأمَّنه وسلَّمه للعباس، فلما أصبح أسلم وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا. فقال - عليه الصلاة والسلام: «مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[1].

وأمر العباس أن يقف بأبي سفيان حيث يسير الجيش حتى ينظر إلى المسلمين، فجعلت الكتائب تمر عليه كتيبة كتيبة حتى انتهت، وانطلق أبو سفيان إلى مكة مسرعًا، ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، لقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٣/ ١٤٠٥)، رقم (١٧٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحَجُون[١]، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل مكة بمن معه من كُدى[٢]، ودخل ﷺ ومن معه من كداء[٣]، ونادى مناديه: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. واستثنى من ذلك جماعة أهدر دماءهم لشدة ما ألحقوه بالمسلمين من الأذى.

وقد صادف جيش خالد بن الوليد في دخوله مقاومة من طائشي قريش، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين،

---

(١) جبل بمعلاة مكة. (ص)

(٢) جبل بأسفل مكة من جهة اليمن. (ص)

(٣) جبل بأعلى مكة. (ص)

واستشهد من فرقته اثنان، وأما فرقة رسول الله ﷺ فلم تصادف مقاومة، وقد دخل - عليه الصلاة والسلام - راكبًا راحلته وهو مُنحنٍ على الرحل، تواضعًا لله تعالى، وشكرًا له عز وجل على هذه النعمة العظمى، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان.

ولقد نُصبت له - عليه الصلاة والسلام - قبة في الموضع الذي أشار بأن تركز فيه الراية، فاستراح في القبة قليلًا، ثم سار وهو يقرأ سورة الفتح، وبجانبه أبو بكر، حتى دخل البيت، وطاف سبعًا على راحلته، واستلم الحَجر بمِحجنه[1]،

---

[1] المِحجن: العصا المعوجة، وكل معطوف معوج، ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم»، لابن سِيده (٣/٨٤).

وكان حول الكعبة أصنام كثيرة، فكان يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ ﴾ [الإسراء: ٨١]

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩]

وبعد أن أتم رسول الله ﷺ طوافه، أمر بالأصنام فأزيلت من حول الكعبة، وطهرت الكعبة من هذه المعبودات الباطلة، ثم أخذ - عليه الصلاة والسلام - مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة الشيبي، ودخلها وكبَّر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلَّى فيه، ثم جلس في المسجد والناس حوله ينتظرون ما هو آمر به في شأن قريش، فقال - عليه الصلاة والسلام: «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟». قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخ كريم. فقال: «اذهبوا

فأنتم الطلقاء»[1]. وردَّ مفتاح الكعبة لسادنها، ثم خطب في الناس خطبة أبان فيها كثيرًا من أحكام الدين، وبعد أن أتمَّها، شرع الناس يبايعونه على الإسلام، فأسلم كثير من قريش.

وممن أسلم في ذلك الوقت: معاوية بن أبي سفيان، وأبو قحافة والد الصديق، وأسلم بعض من أهدر رسول الله ﷺ دمه في ذلك اليوم وبايع، فقُبلت بيعته، وبعد أن تمت بيعة الرجال، بايعته النساء.

وقد أمر رسول الله ﷺ بلالًا أن يؤذن على ظهر الكعبة، وكانت هذه أول مرة ظهر فيها الإسلام على ظهر البيت.

وقد أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها تسعة عشر يومًا أرسل في أثنائها خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا، لهدم

---

[1] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٨٣٢٣).

هيكل «العُزَّى»، وهو أكبر صنم لقريش، وأرسل عمرو بن العاص لهدم «سُواع»، وهو أعظم صنم لهذيل، وبعث آخر لهدم «مَناة»، وهو صنم لخزاعة[1].

---

[1] للاستزادة يراجع: «سبل الهدى والرشاد» (٥/٢٠٠)، و«عيون الأثر» (٢/٢١١).

غزوة حُنَين

بفتح مكة دانت للإسلام جموع العرب ودخلوا في دين الله أفواجًا، غير أن قبيلتي هوازن وثقيف أخذتهم العزة والأنفة وتجمعوا لحرب المسلمين في مكة، فلمَّا سمع بهم رسول الله ﷺ خرج لهم في اثني عشر ألف مقاتل، وهو أكثر جندٍ جنَّده – عليه الصلاة والسلام – فلما وصل جيش المسلمين إلى وادي حنين، كان العدو كامنًا في شعابه، فقاموا على المسلمين قومة رجل واحد قبل أن يتمكن المسلمون من تهيئة صفوفهم، فانهزمت مقدمة جيش المسلمين، فأمر رسول الله ﷺ عمه العباس أن ينادي في الجيش بالثبات فاجتمعوا، واقتتل الفريقان، ولم تمضِ ساعات حتى انهزم الأعداء هزيمة شديدة، وقد قتل من ثقيف وهوازن نحو

سبعين، وغنم المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وإبل.

وتوجَّه رسول الله ﷺ إلى ثقيف بالطائف[١]، فحاصرها مدة ولم يفتحها. وبعد رجوعه منها أتاه وهو بالجعرانة وفود من هوازن، يلتمسون منه ردَّ نسائهم وأبنائهم الذين سباهم المسلمون، فقال عليه الصلاة والسلام: ما كان لي ولبني عبد المطلب فقد رددته إليكم. فقال المهاجرون والأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فرُدَّت إلى هوازن نساؤهم وأبناؤهم.

---

[١] هي مدينة تقع على جبل غزوان جنوب شرقي مكة، وهي بلاد ثقيف، ينظر: «المعالم الأثيرة»، ص١٧٠.

وقام - عليه الصلاة والسلام - من الجعرانة إلى مكة معتمرًا، فأدى العمرة وعاد بعد ذلك إلى المدينة، فوصلها لستٍّ بقين من ذي القعدة.

غزوة تبوك

أقام – عليه الصلاة والسلام – بالمدينة إلى منتصف السنة التاسعة للهجرة، ثم بلغه أن الروم يتجهزون في تبوك لحربه بعد ما كان بينهم وبين المسلمين في حادثة «مؤتة»، فتجهز – عليه الصلاة والسلام – لغزوهم في ثلاثين ألف مقاتل، وكان المسلمون إذ ذاك في زمن عسرة وجدب، فلم يعقهم ذلك عن التأهب لقتال الأعداء، وتصدق أبو بكر لذلك بجميع ماله، وعثمان بن عفان بمال كثير، فخرج – عليه الصلاة والسلام – حتى وصل تبوك، فلم يجدهم بها، فأقام

هناك بضع عشرة ليلة، ثم قفل إلى المدينة، وهذه آخر غزواته ﷺ[١].

---

[١] للاستزادة يراجع: «السيرة النبوية»، لابن هشام (٥/١٩٥)، و«الروض الأُنف» (٧/ ٣٨٣).

نتيجة الدعوة من مبدئها إلى انتهاء الغزوات والسرايا

لقد كانت الدعوة إلى الإسلام في مبدئها سرًّا وخفيةً، والذين دخلوا في الإسلام إذ ذاك أفرادٌ قليلون، وبعد الجهر بالدعوة أخذ عددهم يزداد قليلًا قليلًا، إلى أن أُذن له ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فازداد عددهم بدخول عرب المدينة ومن حولها في الدين وحدانًا وجماعات، ولكن الدعوة لم تصل إلى الدرجة المطلوبة من الانتشار والعموم، حتى تم صلح الحديبية بين قريش والمسلمين، فكان ذلك الصلح سببًا كبيرًا من أسباب فشوِّ الدعوة وعمومها؛ حيث أمنت الطرق، وتمكَّن الرسول – عليه الصلاة والسلام – من إرسال الرسل والكتب إلى الملوك والأمم والقبائل، ثم تم الأمر بفتح مكة ودخول أعاظم قريش في الإسلام، وانتشار القرآن بأسلوبه البديع وحكمه البالغة، المؤثِّرَيْنِ في عقول العرب ذلك التأثير

الذي لانت به شكيمتهم، وشرعوا يفدون على رسول الله ﷺ أفواجًا، وقد كان أكثر ذلك في السنة التاسعة للهجرة.

فمن ذلك وفد «ثقيف»، جاؤوا إلى النبي ﷺ عقب مقدمه من «تبوك» يريدون الإسلام، وطلبوا أشياء أباها عليهم وأشياء أعطاها لهم، ووفد «نصارى نجران»، وهؤلاء لم يسلموا، بل رضوا بدفع الجزية، ووفود «بني فزارة»، قدموا على النبي ﷺ مسلمين.

ووفد «بني تميم»، جاء إلى النبي ﷺ أشرافهم ونادوه من وراء الحجرات، وبعد تبادل الخطب وإنشاد الشعر بين خطبائهم وشعرائهم وخطباء المسلمين وشعرائهم، أسلموا وعادوا إلى أوطانهم.

ووفد «بني سعد بن بكر»، يؤمهم ضمام بن ثعلبة الذي سأل رسول الله ﷺ أسئلة كثيرة وأجابه عنها فأسلم وعاد إلى قومه فما بقي منهم أحد إلا أسلم من يومه.

ووفد «كِندة»، في مقدمته الأشعث بن قيس، وقد أسلموا بعد أن سمعوا أوائل سورة «الصافات».

ووفد «بني عبد القيس بن ربيعة»، وكانوا نصارى فأسلموا جميعًا.

ووفد «بني حنيفة بن ربيعة»، فأسلموا، وكان فيهم مسيلمة بني حنيفة، الذي لقب بالكذَّاب لادعائه النبوة بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الدار الآخرة.

ووفد «طَيِّئ» من قحطان، يقدمهم زيد الخيل، وقد أسلموا جميعًا.

ووفد «بني الحارث بن كعب»، فيهم خالد بن الوليد، جاؤوا مسلمين.

ووفود أخرى من قبائل شتى: من «بني أسد»، و«بني محارب»، و«همدان»، و«غسان»، وغيرهم. ومنهم من جاء مسلمًا، ومنهم من جاء للإسلام وأسلم، ورسل من ملوك حمير وغيرهم جاؤوا يخبرون بإسلامهم.

وهكذا دخل الناس في دين الله أفواجًا، حتى بلغ من كانوا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة أكثر من مائة ألف، والذين لم يحضروا حجة الوداع من المسلمين كانوا أكثر من ذلك أضعافًا مضاعفةً، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[آل عمران: ١٣]

حجة الوداع[١]

بعد أن عاد رسول الله ﷺ من تبوك، بعث أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - في ذي القعدة إلى مكة، سنة تسع من الهجرة، ليحج بالناس، وفي أواخر ذي القعدة من السنة العاشرة قدم - عليه الصلاة والسلام - إلى مكة في جمع عظيم، وأحرم للحج عندما سارت به راحلته، وقال: «لبيك اللّٰهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، ولم يزل سائرًا حتى دخل مكة ضحو يوم الأحد، لأربعٍ خلون من ذي الحجة، وكان دخوله من ثنية كداء، فطاف بالبيت سبعًا، واستلم الحجر الأسود،

---

[١] للاستزادة يراجع: «سبل الهدى والرشاد» (٨/ ٤٥٠)، وقد أفردها عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين بالتصنيف، كالمُحبّ الطَّبري والبِقاعِي وغيرهما.

وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم، وشرب من ماء زمزم، وسعى بين الصفا والمروة سبعًا، راكبًا على راحلته، وفي الثامن من ذي الحجة توجَّه إلى مِنى، فبات بها، وفي التاسع منه توجه إلى عرفة وخطب خطبته المشهورة بخطبة الوداع، ابتدأها – بعد الثناء على الله تعالى – بقوله:

«أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا»، ثم قال: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى الذي ائتمنه عليها».

وقال: «أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حقًّا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدخِلنَ أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين

بفاحشة. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة. ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعضٍ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللّٰهم اشهد».

وتابع: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. كلُّكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيٍّ فضل على عجميٍّ إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللّٰهم اشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب». وقد اشتملت هذه الخطبة العظيمة على غير ذلك من أحكام الله تعالى وحدوده.

وقد أنزل الله عليه في ذلك اليوم قوله - سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾[المائدة: ٣]

وبعد أن أدَّى رسول الله ﷺ مناسك الحج؛ من رمي الجمار، والنحر، والحلق، والطواف، أقام بمكة عشرة أيام، ثم قفل ﷺ إلى المدينة.

أوصافه ﷺ وشمائله[١]

كان رسول الله ﷺ جميلَ الخِلْقة، زهري اللون، يتلألأ وجهه تلألُؤَ القمر ليلة البدر، عظيم الرأس عِظَمًا مناسبًا لبقية أعضائه، شعره بين الجعودة[٢] والسبوطة[٣]، كأنه مُشِطَ فتَكَسَّر قليلًا، لا يتجاوز شعره شحمة أذنيه إذا لم يقصره، واسع الجبين، أزجّ الحواجب بدون اقتران، في وسط أنفه ارتفاع قليل من غير طول فيه، ليس بضيق الفم ولا واسعه، رقيق الأسنان مفلجها، أسبل الخدين، غزير شعر اللحية،

---

[١] هذا باب عظيم من أبواب السيرة، وقد صنف فيه الترمذي كتابه «الشمائل المحمدية»، والقفال كتاب «شمائل النبوة»، وكذا ابن كثير، وغيره.

[٢] الجعد: هو الشعر الغليظ المجتمع، ينظر: «المعجم الوسيط» (١/١٢٥).

[٣] السبط: المسترسل.

جميل العنق، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر.

وكان معتدل الأعضاء في سِمَن معتدل، ليس بمسترخي اللحم، طويل الزندين، رحب الراحتين، ممتلئ الكفين والقدمين، متجافي الأخمصين، ليس في قدميه غضون ولا تشقق.

وكان متوسط القامة، إذا مشى رفع رجليه بنشاط وأوسع في خطاه، ومال إلى سنن المشي برفق ووقار، وكأنما هو في مشيته ينزل من مكان منحدر. وكان خافض الطرف، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء وإذا التفت التفت جميعًا، جُلُّ نظره الملاحظة، يتأخر عن أصحابه في المشي، ويبدأ من لقيه بالسلام.

وكان منزَّهًا عن الأقذار والعيوب، معتدل الحركات، حسن الشمائل، مقتصدًا في ضرورات الحياة - كالأكل والنوم - على قدر الحاجة، وكان وافر العقل ذكيَّ القلب، قوي الحواس، فصيح اللسان، بليغ القول، حليمًا عفوًّا، صبورًا على ما يكره، لا يغضب إلا لله، ولا ينتصر لنفسه، ولم يضرب بيده شيئًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، فلم يضرب غلامًا ولا امرأة.

وكان شُجاعًا، ذا نجدة وفتوة، لا يهاب أحدًا، ولا يفر حيث تفر الأبطال. وكان جوادًا كريمًا سمحًا سخيًّا.

وكان أشد الناس حياء، وأكثرهم عن العورات إغضاءً، لا يشافه أحدًا بما يكره، فلم يكن فاحشًا ولا متفحِّشًا، ولا صخَّابًا بالأسواق، ولا عيَّابًا، لا يجزي بالسيئة سيئةً، بل يعفو ويصفح.

وكان حسن العشرة، كامل الأدب، واسع الخُلُق، دائم البِشْر، ليِّنَ الجانب، رؤوفًا رحيمًا، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويَحْذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بِشْره، يتواضع في غير منقصة، ويتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبهم، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، مَن جالَسه أو فاوضه في حاجة صابَره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناسَ خُلُقه فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق سواء.

وكان يجيب من دعاه ولو عبدًا أو أَمَة، ويقبل الهدية ولو كانت كراعًا ويكافئ عليها.

وكان يخالط أصحابه، ويحادثهم، ويعود مرضاهم، ويمازحهم أحيانًا ولا يقول إلا حقًّا، وكان من خلقه الوفاء، وحسن العهد، والعدل، والأمانة والعفة والصدق، والمروءة.

وكان في أعظم حالات الوقار والتؤدة، وحسن السمت.

وكان في خوف ربه وطاعته له - عز وجل - وإخلاصه في عبادته بالدرجة التي ليس بعدها غاية ﷺ.

مرض رسول الله ﷺ ووفاته

في أوائل صَفَر من السنة الحادية عشرة للهجرة مرض النبي ﷺ بالحمَّى، واستمر ثلاثة عشر يومًا ينتقل في بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه مرضه استأذن منهن أن يتمرض في بيت عائشة، فأذِنَّ له، ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة قال: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس». ولما رأى الأنصار اشتداد مرضه أطافوا بالمسجد قلقين، فخرج عليه الصلاة والسلام معصوب الرأس، يخط برجليه متوكئًا على عليٍّ والفضل يتقدمهم العباس، حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر، وأحاط به الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خُلِّد نبيٌّ قبلي فيمن بعث الله فأُخلَّد فيكم؟ ألا إني لاحق بهم وإنكم لا حقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرًا،

وأوصي المهاجرين فيما بينهم»، إلى أن قال: «ألا وإني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يَرِدَه عليَّ غدًا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغي».

وبينما المسلمون في صلاة الفجر يوم الإثنين ثالث عشر ربيع الأول وأبو بكر- رضي الله عنه - يصلي بهم؛ إذ برسول الله ﷺ قد كشف سَجَف[1] حجرة عائشة - رضي الله عنها - فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة وتبسَّم، فظن أبو بكر أن رسول الله يريد أن يخرج للصلاة، فتقهقر إلى الصف، وكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أَتِمُّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر، ثم حضرته الوفاة ورأسه الشريف على فخذ عائشة -

---

[1] السَّجَف: الستارة.

رضي الله عنها - فقال: «اللّٰهم الرفيق الأعلى»، ولم تأتِ ضحوة ذلك اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ هذه الحياة الدنيا ولحق بربه عز وجل.

ولم يكن أبو بكر - رضي الله عنه - موجودًا في ذلك الوقت بالقرب من منزل عائشة، فلما حضر وأُخبر الخبر، دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله ﷺ، وجعل يقبِّله ويبكي ويقول: صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبَكَ حيًّا وميتًا! ثم خرج إلى الناس وقال: ألا إن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت.

ومكث ﷺ في بيته بقية يوم الإثنين وليلة الثلاثاء ويومه، وليلة الأربعاء، حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة لهم وتفرغوا لغسل رسول الله ﷺ ودفنه، فغسَّله عليٌّ بن أبي طالب بمساعدة العباس وابنيه الفضل وقثم، وأسامة بن

زيد، وشقران مولى رسول الله ﷺ، ثم كُفِّنَ في ثلاثة أثواب، ليس فيها قميص ولا عمامة، ووضع على سريره في بيته، فدخل الناس يصلون عليه فرادى لا يؤمهم أحد، ثم حُفر اللحد في موضع وفاته من حجرة عائشة ورُش بالماء، وأنزله فيه عليٌّ والعباس وولداه الفضل وقثم، وقد رفع قبره الشريف عن الأرض قدر شبر.

وقد بلغ عمره الشريف ثلاثًا وستين سنة، مكث منها بمكة ثلاثًا وخمسين سنة، وبالمدينة المنورة عشر سنين ﷺ.

بحمد الله تعالى تم كتاب (ملخص السيرة النبوية)

فهرس المحتويات

افتتاحية..... ٥
أمين عام الهيئةبطاقة حياة..... ٧
«الشيخ محمد هارون»..... ٩
نسب النبي ﷺ من جهة أبيه وأمه..... ١٥
مولده ﷺ وزمن ولادته ومكانها ووفاة والده..... ١٨
رضاعه ﷺ وما حصل في زمن الرضاع..... ٢٠
حادثة شق صدره ﷺ ورجوعه لأمه ٢٢
وفاة أمه ﷺ وكفالة جده وعمه له..... ٢٤
سفره ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام ٢٦
رحلته إلى الشام مرة ثانية في تجارة لخديجة بنت خويلد ٢٨
زواجه ﷺ بالسيدة خديجة بنت خويلد..... ٣٠
بقية أزواجه ﷺ وأعمامه وعماته ٣٢
شهوده ﷺ بناء الكعبة..... ٣٧

معيشته ﷺ قبل البعثة..... ٤٠
شيء مما أكرمه الله تعالى به قبل البعثة..... ٤٣
تَعَبُّدُه ﷺ قبل البعثة..... ٤٥
كيفية الوحي وطرقه ومبدؤه وتاريخ النبوة والبعثة المحمدية.. ٤٧
الدعوة إلى الإسلام سرًّا ٥٣
الجهر بالدعوة..... ٦٠
أمره ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة..... ٧١
بيعة أهل المدينة ٧٦
هجرة رسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه..... ٨٢
من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة..... ٨٢
الإسراء والمعراج ٩٣
أسباب الغزوات ومشروعية القتال ٩٧
غزوة بدر الكبرى ١٠٢
غزوة أُحُد..... ١١١
غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب ١٢٠

غزوة الحديبية وصلحها..... ١٢٤
مراسلة رسول الله ﷺ للملوك بعد صلح الحديبية ١٣٠
غزوة خيبر ١٣٦
فتح فَدَك..... ١٣٩
عمرة القضاء..... ١٤٠
سرية مؤتة ١٤١
فتح مكة ونتائجه ١٤٣
غزوة حُنَين..... ١٥١
غزوة تبوك..... ١٥٤
نتيجة الدعوة من مبدئها إلى انتهاء الغزوات والسرايا..... ١٥٦
حجة الوداع..... ١٦٠
أوصافه ﷺ وشمائله..... ١٦٤
مرض رسول الله ﷺ ووفاته ١٦٩
فهرس المحتويات ١٧٣

الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء